مصطفى محمود

نار تحت الرماد

الطبعة السادسة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

قنبلة وشيكة الانفجار !

جماعة الأب جيم جونز هى طائفة بروتستنتية متطرفة تأسست فى كاليفورنيا عام ١٩٦٣ ، وبلغ عدد أعضائها ثلاثين ألفاً . . وقد تلقى الأب جونز تزكيات من عدد من رجال الكونجرس ومن عمدة سان فرنسيسكو ومن زوجة الرئيس كارتر ، وهى تزكيات شجعت حاكم جويانا على أن يمنحه قطعة أرض من ٢٧ ألف فدان يقيم عليها مستعمراته ويحقق عليها حلمه المزعوم بمجتمع تسوده المحبة والتعاون والإخاء وتزول فيه الطبقات . . وهى المستعمرة التى انتهت بحادث قتل وانتحار رهيب لأطفال وشباب ورجال ونساء جاوزوا التسعمائة عدداً ، وعلى رأسهم رئيس الطائفة الأب جونز نفسه ، الذى قاد عملية الانتحار الجماعى وكأنها صلاة أو طقس دينى ، والتزكيات التى قدمها رجال الكونجرس وعمدة سان فرنسيسكو وزوجة الرئيس كارتر تدل على أننا أمام رجل لامع مؤثر بليغ

وداعية من أصحاب الشخصيات المغناطيسية . . وأبلغ فى الدلالة على قدرة هذا الرجل مافعله فى آلاف الشباب ممن دفعهم أمامه هم وأسرهم وأطفالهم حتى الموت فى طاعة عمياء ودكتاتورية بشعة. وكأنه الرب الواحد الذى لايناقش .

وظاهرة التطرف الدينى تكاد تكتسح العالم كله اليوم ، وقد شاهدنا منها جماعة التكفير والهجرة عندنا . . وشاهدنا مافعله زعيمها بالمئات من أتباعه الذين كرسوا أنفسهم له حتى الموت وحتى الجريمة .

وإذا كانت هذه المؤشرات تدل على شيء فهى تدل على حالة تعطش دينى عند الشباب ، وحالة خواء وفراغ وضياع واستعداد للموت وراء أول صارخ فى برية يدعوهم إلى الله .

وقد كنت فى لندن من عشر سنوات ، وكانت جميع الشوارع تغطيها « أفيشات » كبيرة من محاضرات الزعيم الروحى والصوفى الهندى « المهاريشى ماهيشى » وكان الشباب يحجون إلى هذه المحاضرات زرافات بالتعطش الذى يسعون به إلى ملاعب الكرة ، وقد أطالوا ذقونهم وأظفارهم وعلقوا المسابح فى رقابهم وقد سمعنا عن النبى الجديد « مون » وما فعله فى أوربا .

وسمعنا عن النبى الآخر الزنجى « أليجا محمد » الذى جمع حوله طائفة من أقوى الطوائف الإسلامية فى أمريكا .

وفى كل مرة نرى رجلاً يصرخ داعياً إلى الله فيجتمع حوله الألوف من الشباب يتابعونه فى طاعة وبراءة الأطفال .

لقد فشلت التكنولوجيا وحدها فى أن تكون هدفاً للحياة ، وفشلت الحضارة المادية فى أن تقدم المحراب البديل عن المسجد والكنيسة ، وانهزمت

الماركسية فى امتحان التطبيق وانكشفت عوراتها وثغراتها ، وفقدت تلك اللمعة التى كانت تجذب إليها الشباب ، كما عجز رجال الدين التقليديون من قساوسة ومشايخ عن مخاطبة الأجيال الجديدة فأصبح الباب مفتوحاً على مصراعيه لأى زعامة متطرفة يقودها أى شيطان ملهم يجيد حرفة الكلام ، ويتقن هذه اللغة السحرية التى يتكلم بها أهل الله ، وعادة مايكون هذا الشيطان من أصحاب القوى المغناطيسية فى التأثير.

وحينئذ فالويل لنا منه ومن كل من يمشى خلفه .

ولاشك أن هؤلاء هم طلائع المسيخ الدجال فى عصر عجيب جمع بين الانحلال والعهر المادى وبين الصحوة الروحية والشوق إلى الله ويكاد يجتمع هذان الوجهان الوجه المادى والوجه الروحى فى كل شاب ويتصارعان أحياناً فى وعيه وأحياناً فى عقله الباطن ولا أنسى تلك المرة التى قابلت فيها امرأة تعيش حياتها فى تبذل كامل وانحلال وكانت تبكى فى طهارة كطفلة كلما ذكر أمامها الله أو استمعت إلى قرآن . وكانت تبكى وسط ضجيج الجاز وصخب السكارى فى ناد ليلى وقد نسيت تماماً أنها فى زحام وأنها وسط الناس . . وأى ناس !

وتلك هى الشخصية المزدوجة لهذا العصر المتفجر بالتناقضات .

ولقد رأينا صاحبنا الأب جيم جونز يدعو إلى الطهارة والتدين ، ويعيش فى نفس الوقت حياة الجنس والمخدرات والشذوذ ، ورأيناه يمسك الإنجيل بيد ويقتل باليد الأخرى .

وإنى لأشعر أحياناً أن تحت أقدامنا فتيل قنبلة دينية زمنية ، وأن النار تسرح فى الفتيل ، وأن القنبلة وشيكة الانفجار . . وأننا فى أشد الحاجة إلى طلائع

لترشيد هذا الحماس الديني وتنويره حتى يأتي التحول بإصلاح وليس بموجات جديدة من الجرائم . والخيط دائماً رفيع جدًّا بين أهل الله وأهل الشيطان ، خاصة إذا تلثم أهل الشيطان باللثام الديني واتخذوا المصاحف والأناجيل شعاراً ودعوا إلى الله وإلى الفضيلة والتقوى . والفارق دائماً هو تلك النبرة الحادة وذلك الميل إلى التعصب .

والمتعصبون من جميع الأديان ليسوا فى الواقع على دين سوى دين نفوسهم . . فهم عابدون لذواتهم ولتصوراتهم الشخصية وليس لله الواحد الداعي إلى التواضع .

والنبي عليه الصلاة والسلام وضع يده فى يد اليهود فى البداية وسالم أهل الشرك وعاهد الكفار ولم يرفع سلاحاً فى وجه أحد إلا حينما قاتله الكل ، وحاربه الكل واضطهده الكل حينئذ أذن له أن يدافع عن نفسه . . والمسيح قال فى أولى وصاياه أحبوا أعداءكم . . ونحن نقول (ادفع بالتي هى أحسن السيئة) ويوحنا كان على صلابته فى الحق محبًّا للناس وعطوفاً على الحيوان ، وقد أحب كل شيء حتى الجبل والشجر ورمال البحر وثرى الأرض .

وتلك سمة رجل الدين الحقيقي . . حبه للعدو ونصحه للخصم قبل الصديق وكراهيته للعنف إلا فى الضرورة القصوى .

والله يقول لمحمد عليه الصلاة : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ، (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ، (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) . (وما أنت عليهم بجبار) ، (فاصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلاً) .

(قل كلٌّ يعمل على شاكِلَتِهِ) ، (لايضركم من ضل إذا اهتديتم) ، (لكم دينكم ولى دين) .

إن احترام حرية الرأى والسماحة مع وجهة النظر المخالفة وسعة الصدر مع الخصوم وحب الحياة والخير والدعوة إلى البناء وكراهة الهدم ، هى علامات أهل الله ، وهى التى تميزهم عن الشياطين الملثمين مهما قالوا ومهما دعوا . فخذوا حذركم من هذه الموجات التى تأتى تباعاً وأنصتوا إلى القلوب وليس إلى زخارف الأقوال ، فإن النار تسرح فى الفتيل والعالم قد بلغ ذروة تناقضه . .

أهل الله وأهل الشيطان !

تطالعنا الأخبار كل يوم عن حوادث الشغب والتظاهر هنا وهناك ومايلفت النظر أن الشعارات المرفوعة هي شعارات دينية . . وأن وراءها أموالاً سوفيتية أحيانا .

إنهم يحرقون المؤسسات ودور السينما ، ويقتلون الأطفال والشيوخ والنساء باسم الدين . . وهو أمر مريب . . فالسينما أداة علمية محايدة شأنها شأن البترول والبخار والذرة والكهرباء . وهى أدوات يمكن أن تستخدم فى الخير ويمكن أن تستخدم فى الشر ، والفيلم السينمائى يمكن أن يكون داعياً إلى الحق والخير والجمال كما يمكن أن يكون داعياً إلى الانحلال ، ولا ذنب لدور السينما ولا لرواد السينما ، وإنما الذنب ذنب العقول الماكرة والمذاهب التى تستخدم هذه الأدوات للتهديم ، والسوفييت هم أول من استخدم السينما لهدم الأفكار الدينية ونشر المادية فى العالم كله .

ولايمكن حتى للعقل الساذج البسيط أن يصدق هذه الغيرة الدينية من الرفاق السوفييت . . إنها مثل الغيرة على القضية الفلسطينية فى الشعارات السوفيتية المعلنة فى الوقت الذى تسبق روسيا كل الدول فى الاعتراف بإسرائيل ثم تكون أول من يمسك بيد عبد الناصر عن المبادرة بالهجوم على إسرائيل فى حرب ٦٧ ، ثم تمنع عنا السلاح فى حرب ٧٣ ، ثم تحاول أن تجهض المعركة فى أيامها الأولى . ثم هى الآن تمنع السلاح عن سوريا فى حين تهتف البرافدا لفلسطين والفلسطينيين طوال الوقت فى تبجح وتناقض عجيب .

إنها إذن جزء من ظاهرة الدجل والمتاجرة بالدين .

وهى لاتفترق كثيراً عن شعارات الأب جيم جونز الذى ساق أتباعه إلى مجزرة باسم الدين ، أو عن جماعة التكفير والهجرة التى ساقت أتباعها إلى الجريمة باسم الإسلام . . وكل زعيم يحاول أن يستدرج أتباعه إلى ولاء أعمى وتبعية مطلقة هو من نفس الفصيلة وإن تكلم بلغة أخرى . . وهتلر فى كتابه كفاحى والنازية والفاشية والدبابات السوفييتية حينما اقتحمت المجر والجيش الروسى حينما اقتحم تشيكوسلوفاكيا والذرائع الثقافية للطغيان والدكتاتورية فى كل مكان كانت كلها من نفس النوع ومن نفس الفصيلة . . كلها كانت محاولات لترويج مصاحف بديلة وإعلان آلهة بديلة وجر الأتباع إلى ولاء أعمى وإيمان أعمى ودعوة إلى حماس دينى تختلف فيه الرايات أحياناً وتتفق ، ولكنها كلها تسير فى نفس الاتجاه وتأخذ الشباب من نفس نقطة الضعف . . نقطة الفراغ الدينى والتعطش إلى الهدف والمثال والحق والخير .

إنها جميعاً تحاول أن تقدم له همزة الوصل .

وهى همزة الوصل بين شباب مثالى مندفع وبين أهداف يزوقها كل فريق على هواه ويدعى أنها الحق . .

ولكن الحق هو الله سبحانه وتعالى والله هو المنبع الوحيد للأخلاق وللكمال كما قال برجسون وكما نقول نحن فى القرآن وكما يقول كل دين . .

والخواء والفراغ والخراب النفسى الذى يعيش فيه شباب العالم الآن هو بسبب افتقاد همزة الوصل تلك .

إن همزة الوصل الناقصة هى التى أودت بالشباب إلى هذه الانفجارات الانتحارية .

وهى وراء كل تطرف إجرامى أو عدوانى وهى وراء إدمان المخدرات وحالة الهروب والاغتراب وجماعة الهيبز .

إنه دائماً شباب يفتقد الهدف والغاية .

وقد نجح الزعماء العدوانيون العظام أمثال هتلر وستالين وماركس ومن قبلهم زعماء الفرق المتطرفة أمثال الخوارج والقرامطة وجماعة التكفير والهجرة وجماعة القس جونز . . كل هؤلاء نجحوا مع أتباعهم ، لأنهم قدموا لهم همزة وصل مزيفة ، وقدموا محراباً بديلاً عن المسجد والكنيسة ، وإيماناً مريضاً بديلاً عن الإيمان السليم ، وهدفاً يصلح لامتصاص الطاقة الشبابية وشغل الوقت الضائع .

وفى مواجهة هذه الانفجارات التى تحدث فى كل مكان لم تعد تجدى العقاقير المسكنة والعلاجات الجزئية ولم تعد تنفع الجراحات الوقتية . . وإنما أصبح واجباً أن تواجه جميعها بمواجهة أسبابها وعلاجها كلها بإصلاح جذرى . . ولن يتحقق ذلك إلا بأن نقدم للشباب ماينقصه بالفعل . همزة

الوصل الحقيقية التي تملأ خرابة النفس وتعمر خواء الشباب وتنور باطنه . . وذلك بالدين الحقيقي والإيمان السوي والصلة المثلى بينه وبين ربه .

بهذا وحده سوف تهدأ نفسه ويسكن وجدانه وتستعيد فطرته توازنها ويتحول قلبه المريض المنعزل العدواني إلى قلب محب مشارك مسارع إلى الخير والبذل والعطاء .

هناك ضرورة فى العالم كله لإحياء ديني يرفع راية حق بين كل الرايات المضللة الموجودة ، والاحتياج عالمى ، لأن النقص عالمى والمرض عالمى والأعراض المنذرة تشهد فى كل مكان على صدق التشخيص ، ولبلوغ مثل هذا الهدف لابد من إعادة تقديم الدين فى أصوله النقية وبلغة عالمية عصرية تخاطب الكل فى كل مكان وليس بلغة طائفية منغلقة متعصبة .

لابد من تقديم الدين فى روحه وجوهريته وليس فى شكلياته . . الدين كتوحيد وخلق ومسئولية وعمل بالدرجة الأولى ، الدين كحب ووعى كونى وعلم وتقديس للخير والجمال .

ولم يضر الإسلام شيء مثلما ضرته الانقسامات والاختلافات حول الشكليات والمظاهر ، والاستغراق فى هذه التفاصيل إلى درجة نسيان لب الموضوع .

* هل يجب أن تغطى الطرحة وجه المرأة أو شعرها فقط ؟ !
* هل حلق اللحية وترك السواك كفر؟ !
* هل يكون غسل اليدين فى الوضوء إلى المرافق أو شاملاً المرافق ؟ ! .
* هل الاستنجاء بالحصى أفضل أو بالماء ؟ !

هل اقتناء الصور وتعليقها على الجدران حرام . . ؟

* هل لبس النايلون للرجال حكمه حكم لبس الحرير حرام . . ؟

وعشرات وعشرات من القضايا الجزئية يكفر فيها الواحد الآخر ، وتضيع روح الإسلام ويضيع لبابه بسبب الغرق والتنابذ حول هذه القشور والتفاصيل .

والمطلوب فهم جديد عصرى يطرح هذه الخلافات ويدع تلك القشور وينفذ إلى الروح ليستطيع مخاطبة العقل العصرى المصاب فى صميمه .

ولو أننا سنفهم السنة النبوية على أنها لحية فإن راسبوتين أكبر فساق عصره وصاحب أكبر لحية سوف يكون أكثر اتباعاً للنبى من أبى بكر وعمر . . وماركس بلحيته العظمى سوف يسبق الكل .

بل السنة فى نظرى هى اتباع الرسول فيما تميز به من خلق وإيمان وعقيدة وصفاء نفسى وليس فيما كان يتسوك به أو يكتحل أو يلبس أو يأكل .

ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يركب البغلة فلماذا لايتخذها أصحابنا سنة ويتركون ركوب الطائرات والقطر ويعودون إلى البغال . . لماذا يتهاونون فى هذه الحكاية ويتعاركون حول الذقن واللحية ؟

وكان عليه الصلاة والسلام يأكل بأصابعه . . وكان يذهب إلى الخلاء لقضاء الحاجة . . فهل نتخذ هذه الأمور سنّة كما يطالب بعض الغلاة ؟

بل هى مسائل شكلية كانت مرتبطة بالعصر فلما تغير العصر تغيرت هى أيضاً . . يستوى فى ذلك ركوب البغلة أو استعمال السواك . . فالعصر فى الحالتين قدم لنا بدائل أفضل فعندنا الطائرة والقطار وعندنا الفرشاة ومعجون الأسنان .

إنما الدين هو الأمور الثوابت وليس المتغيرات .

وإنما السنة هي اتباع الرسول فيما تميز به وتفوق على أقرانه .

السنة النبوية هي السلوك المرتبط بالرتبة النبوية وليس السلوك المرتبط بالصفة البشرية العادية

وحينما اختلف المشركون على حمل الحجر الأسود قبل البعثة وتشاجروا أيهم يحمله ثم ظهر محمد على الطريق . . صاحوا جميعاً « هذا الأمين هذا محمد » وأخذوا بنصيحته . . لم يقولوا . . هذا هو الرجل ذو اللحية . . ولم يقولوا . . هذا هو صاحبنا الذى يستاك . . بل قالوا هذا الأمين هذا محمد . لأن السواك واللحية كانتا أموراً عادية فى ذلك الوقت ، وكان أبو جهل ملتحياً ، وكان أبو لهب يستاك بالسواك . . إنما تميز محمد على الكل بالأمانة . . وهنا جماع الأمر . . وهنا روح المسألة . . وهنا الامتياز الذى علينا أن نحاول تقليد الرسول فيه والسير على قدمه . . وهذا معنى السنة وروحها فى نظرى . . أما الباقى فأمور لا تقدم ولا تؤخر . وقد نصح النبى المسلمين ليتخذوا اللحية لكى يختلفوا عن اليهود الذين كانوا يحلقونها . . فماذا يكون الحال الآن واليهود قد عادوا إلى اللحى (الهيبيز والخنافس . . إلخ) إن حلقها يكون أقرب الآن لمقصود السنة وذلك لكى نختلف عن اليهود وذلك روح الأمر .

وبهذا الأسلوب ندعو إلى الدين بأن نجلو روحه وجوهره ونقدمه رسالة عالمية للعالم وليس بأن نختلف ونتعارك فرقاً وطوائف على شكليات وأمور ثانوية ، فإن الله قد قال فى كتابه : (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) ، وبهذا قطع ربنا بأن فى الدين قضية جوهرية هى روح

الأمر وماهيته تلك هى التوحيد وما دون ذلك أمور ثانوية يمكن أن تكون محل مغفرة .

وفى عالم ارتد إلى جاهلية شرسة وعاد ملحداً كافراً ماديًّا علينا أن نبدأ معه من البداية من الأبجدية الدينية من القضية الجوهرية وليس من الشكليات والثانويات .

إن استحضار معنى الله الواحد فى وجدان المواطن أصبح القضية الأولى العاجلة ، فالعالم انحدر إلى غفلة مادية وانشغال كامل والله أصبح غائباً عن الوجدان الإنسانى الغارق فى التفاصيل الاستهلاكية واللذات السريعة . . والتليفزيون والسينما والمسرح والراديو والكتاب والمجلة أصبحت أدوات خطيرة تزيد من إغراقنا فى الغفلة والغيبوبة والإغماء الحسى بالأغانى الجنسية وأفلام الجريمة وإعلانات الإثارة ومباريات الدورى والمصارعة الحرة وروايات رعاة البقر . . والنتيجة أن انحدرت النوعية الإنسانية إلى نوعية حيوانية بقرية ، فأصبحنا نرى الناس يتناطحون أفراداً وجماعات كالجواميس والأبقار على اللقمة والدرهم وقيراط الأرض والمرأة وزجاجة النبيذ .

إن الدعوة المطلوبة إذن هى دعوة توقظ النفوس على جوهر القضية وروح الأمر . . دعوة تتكلم بلغة العصر وتخاطب الكل دون تعصب ودون تطرف وتحاول أن تمس فى قلب المواطن ذلك الفراغ والخواء والهمزة المفقودة بينه وبين أصله وتحاول أن تعيده فى رفق إلى أيام وصله بأسلوب سوى لا عدوانية فيه ولا تشنج ولا احتفال فيه بالتفاصيل والأمور الثانوية . .

الدين كما هو وكما أنزله الله ، الدين الذى يحب العلم والفن ويدعو إلى التقدم

والتطور ويشجع التكنولوجيا والإبداع الخصب .

من هنا يمكن أن يبدأ الإصلاح الحقيقى لكل هذه الظواهر الانفجارية ، وإن لم يبدأ هذا الإصلاح من الآن فإن الوقت الضائع سوف يعجل بكوارث ومفاجآت غير محسوبة يمكن أن تفاجئنا هنا أو فى أى مكان من العالم ، فالنار تسرح فى الفتيل كما قلت ، وهناك قنبلة دينية وشيكة الانفجار ، وهم يحرقون دور السينما ويقتلون الأطفال والشيوخ باسم الدين وهناك أمـــوال مشبوهة تنفق لإشعال هذه النار . . إن الكل يدعى أنه يقتل فى سبيل الله حتى الماركسى الذى لايؤمن بالله قد رفع لافتة مزيفة وأطلق اللحية والبخور وأمسك بمسبحة . . وقريباً سوف يختلط الحابل بالنابل فى سوق الدجل ولن تستطيع العين أن تتبين أهل الله من أهل الشيطان .

لقد طلعت النذر فى الأفق .

وعلينا بالمسارعة إلى العلاج قبل أن تسبقنا الحوادث .

الحكم الإسلامى . . . متى . . وكيف ؟

كان يقول لى :

كلما سمعت القرآن يتلى أمامى أبكى .. أتذكر آثامى فأبكى ثم ما يكاد يمر وقت حتى أرى نفسى أضعف وأعاود الإثم من جديد .

وكانت تقول :

كثيراً ما كنت أصحو على أذان الفجر فزعة فأقفز من فراشى عارية وأنا أرتجف وأشعر بوخز الإبر ولسع العقارب فى كل مكان قبلنى فيه ذلك الرجل الذى كنت بين ذراعيه وأهرول إلى الحمام وأظل تحت الدش ساعات وأنا أحس بأن كل شىء فىَّ ملوث .

وهو فنان اختاره الله إلى جواره من زمن وهى فنانة تعودت أن تعيش حياتها بالطول والعرض دون حساب لشىء .

الإحساس الديني لا يبرح الإنسان حتى فى ذروة انحلاله .. وهذا هو الحال دائما فى هذه البلاد التى عرفت الله وبنت له المعابد منذ سبعة آلاف سنة .

لا تجد فيها كافرا واحدا حقيقيا .. وإنما تجد فيها أهل غفلة وأهل هوى وأهل دنيا

وعصرنا الذى نعيشه اليوم عصر غفلة .

انشغالات وهموم ومصالح وأطماع وشهوات تأخذ الناس فى دواماتها ء ولكن فى القلب وفى الصميم يظل هناك عطش ولوعة وحزن على شىء مفقود مضيع .

لوعة من ضيع الذهب فى سبيل الورق وحزن من ضيع حبه الأول الوحيد وضيع وطنه وضيع نسبه الشريف وضيع أصله وحقيقته .. حيث جاء من أشرف نسب .. من الله سبحانه وتعالى .

الله وطنه وربه وأصله

والله حبه الأول الحقيق والوحيد الذى أضاعه فى الزحام حينما نزل إلى عالم الشتات ومضى يتلفت تتخطفه أضواء الفترينات وتشده الفتن من ذراعيه وتهوى به أطماعه إلى الحضيض وتكبه الشهوات على وجهه حيوانا يلهث.

وأقابل كل يوم من يسألنى :

أيحاسبنا الله نحن أبناء هذا العصر الملعون المليء بالمغريات كما سوف يحاسب أهل البداوة الأولى أيام قريش ، فى تلك الأزمنة التى لم تكن فيها سينما ولا تلفزيون ولا راديو ولا مجلات بلاى بوى ولا كاسيت ولا عرايا على البلاجات . . ترى ماذا كان يفعل المسلمون الأبرار الأوائل من أهل النقاء

والتقوى لوكانت مارلين مونرو ورقصات الستريبتيز وعرايا البلاجات وإعلانات الروج والشامبو دخلت عليهم غرف نومهم وأطلت عليهم من الشاشة الصغيرة كل يوم . . أكانوا يظلون على طهارتهم وعلى نقائهم الديني الذى قرأنا عنه ؟

ألا ترى أن الظروف تقتضى أحكاما مخففة .

أتظن أنه يمكن أن يقوم حكم إسلامى فى هذه الظروف التى نعيش فيها .. حكم مثل حكم عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز ..

وهل يمكن قيام مثل هذا الحكم دون بتر كامل للعصر كله ودون إرهاب حديدى يستخدم العنف ليستأصل عادات ترسخت فى النفوس وأصبحت مثل التنفس .

ولو جاء حاكم إسلامى عصرى وحاول أخذ الأمور بالتدرج والهوادة والترفق . . هل يرضى عنه أهل الدعوة المتشددون . . ألا يتهمونه بالترخص والابتداع . . ثم ألا ينشق الجميع فرقا تتهم بعضها بعضا وتقتل بعضها بعضا . . وإيران مثال حى على ذلك .

والتساؤلات كلها عميقة وفى محلها ولا أظن أن التدين يمكن أن يأخذ الشكل القديم بتفاصيله فى عصر تغير تماماً .

ومن يريد أن يعيش كأبى بكر ليس أمامه سوى أن يغلق بابه عليه أو ينزوى فى مسجد ويقطع صلته بالدنيا حوله تماما . . وهو لن يخرج من خلوته إلا أن يخرج فى حرب يخوضها ثم يعود مهرولا إلى خلوته من جديد .

إن الاسلام بهذه الصورة المثلى ممكن فقط لأفراد نذروا أنفسهم وهم الصوفية الكمل فى كل العصور ، أما المجتمع كله فلا يمكن إدخاله فى هذا

القالب القديم إلا قهرا .

وهو قهر سوف تكون له سلبيات وردود فعل سيئة تضيع ميزاته وحسناته .

يمكن أن تحكم نفسك حكما إسلاميا بهذه الصورة الحرفية على سبيل النذر والتطوع ولكن لا يمكنك أن تحكم المجتمع كله بهذا الأسلوب دون أن تستخدم العنف الدموى القهرى لتخرج الناس من عوائدهم .

والدين لا يمكن غرسه بالإكراه ، والفضائل لا تولد عنوة .

إن الصيحة التى يمكن أن يطلقها الدعاة اليوم هى :

أصلح نفسك .

ليصلح كل واحد من نفسه وليحاول أن يروض سلوكه ويحكم دولته الداخلية ويخضع أهواءه وشهواته . . فإذا نجح فليحاول أن يصلح أهله وجيرته فإذا نجح فليكن صوت حق وقدوة ومثالا للمجموع وتلك أوسع خطوة ممكنة نحو حكم إسلامى .

أما محاولة الإصلاح بالثورة والانقلاب العنيف فهى أحلام تسلطية وشهوات حكم وتحكم .

إن تجريد فرق مسلحة لتطهير قلوب الناس لن يثمر إلا الرفض والكراهية لكل ما هو دينى وحينما صنع محمد عليه الصلاة والسلام وصحابته مجتمع المدينة كان نبيا مؤيدا بالله وبالروح القدس وبجنود لا حصر لها من الملائكة ، وكانت الحياة بدائية بسيطة وكان النبى الكريم رجلا لا ينطق عن الهوى وإنما يقول ويفعل بوحى يوحى . . فأين منا من يستطيع أن يفعل هذا .

واسمعوا قول الجن فى زمان الرسالة :

(وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) (٨ - ٩ - الجن)

هؤلاء هم الجن يشهدون بأن الله قد ملأ السماء بالحرس الشديد والشهب وجعلها للشياطين رصدًا يحول بينهم وبين التسمع وذلك ليحرس نبيه ورسالته .

فأين هذا الحال من حالنا اليوم وقد أطلق الله علينا الشياطين وأرسل الجن من عقالها وأخرج المردة من قماقمها تنوش القلوب والعقول .

إن الحكم الإسلامى لا يستطيع أن يأتى به إلا نبى مؤيد بالله والملائكة والمعجزات أو رجل طاهر على قدم النبوة يسير خلف النبى حذو النعل بالنعل .

إن تغيير القلوب عمل إلهى وليس عملا بشريا والله يقول لرسوله الكامل (لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) .

إن الوحدة وتأليف القلوب عمل فريد لا يقدر عليه العسكر . . بل ولا النبى دون مشيئة وتيسير وتمكين إلهى ، ولا وصول للحكم الإسلامى إلا على مراحل . . مرحلة أولى من التوعية والدعوة ونشر القدوة ثم تظهر طلائع من أهل التقوى والورع ثم يظهر رجل طاهر على قدم النبوة . . يجمع الناس حوله بالمحبة ثم بتيسير الله يتحرك المجتمع كله وراءه اختيارا ودون إكراه ودون قتل ودون قهر . .

حين ذاك . . وليس قبل . . يكون الحديث عن حكم إسلامى .

أما هذه الدعوات الفجة المصحوبة بالتشنجات الهاتفة بحكم إسلامى يأتى غدا أو بعد غد دون هذه التهيئة الإلهية . . فحكمها حكم الانقلابات التى تأتى

فتغير الجالسين على الكراسي وتغير المنتفعين دون أن تغير قلبا واحدا أو تنور ضميرا واحدا .

وحسب العاقل الذى يريد إصلاحا أن يبدأ بإصلاح نفسه أولا . . ويشرع بتطهير دولته ويطبق القانون الإلهى فى سلوكه . . فذلك هو أول الغيث ثم بعد تجمع القطرات يأتى المطر .

أما أن نصطنع المطر بالشعارات والهتافات دون أن تتكثف القطرات . . ونصطنع القطرات بالأقوال دون تهيئة سابقة لظروف الرطوبة والبرودة ثم أن نتصور أن قطرة يمكن أن تنمو دون نواة ودون بذرة فذلك مثل توقع الحمل دون لقاح أو تصور جنين يكتمل فى يوم بمجرد الهتاف والحماس .

نحن نعيش فى عصر مادى جاهلى مبتعد بمؤسساته وتنظيماته وعاداته عن الروحانيات والمنهج الروحى ، ولا يمكن أن ينقلب هذا العصر فى أربع وعشرين ساعة إلى عصر إسلامى بمجرد إطلاق النداءات .

ولو أن كلا منا أنفق الوقت فى إصلاح نفسه ومجاهدة عيوبه لكسبنا أعمارنا ولصنعنا شيئا أفضل من النداء على ثمرة قبل أوانها .

يقول الله لعيسى فى حديث قدسى « ياعيسى عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الآخرين والا فاستح منى » .

اللهم إنى أشعر بالحياء منك .

لا تشادوا الناس ياقوم ولا تشادوا أنفسكم فإن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق وتدرج وهوادة وخذوا بالممكن أولا قبل محاولة فرض الأمثل بالقوة فإن المتعنت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .

إن الفقهاء الأفاضل الذين يفتون كل يوم بأن السينما حرام والموسيقى حرام والتليفزيون حرام والغناء حرام والبنوك حرام يجعلون حياتنا كلها كفرا صراحا فلا يبقى لنا إلا أن نهاجر إلى قمم الجبال إن كان عندنا إيمان . . وذلك هو نفس مبدأ شباب التكفير والهجرة وهو نفس مبدأ القس المسيحى جيم جونز الذى هاجر مع أتباعه إلى أطراف الغابة وأقام مستعمرة ثم حكم فى النهاية بالموت والقتل على نفسه وعلى أتباعه فتجرعوا جميعا السم أطفالا وشبابا وشيوخا وماتوا عُملا بآية الإنجيل « من أهلك نفسه من أجلى وجدها » .

وذلك هو حب الله الذى انتهى إلى اليأس من رحمته وإلى الانتحار وهو أشنع الكفر .

وتلك آفة المغالاة والتزمت والتعصب والتطرف الذى يقلب الشىء إلى ضده .

ولو نظر أهل الحل والعقد إلى رواتبهم التى يقبضونها من الدولة لوجدوا أن أموالهم يدخل فيها الحرام من إيرادات السياحة وجمارك الخمور وصالات القمار بما فى ذلك الشيوخ الأفاضل أنفسهم وعلماء الأزهر ووزير الأوقاف وأهل الفتاوى الذين يفتون بالحل والحرمة . . فكيف تبرأ ذمتهم من نظام هم أعمدته وأركانه .

إن العصر قد ابتعد عن الدين بالكلية .

والعالم يعيش جاهلية علمية مادية رغم الشعارات والمصاحف والأناجيل المعلقة فى الصدور . . هناك فساد فى العالم كله ولكن ليس معنى هذا أن يكون الإصلاح بالرفض الكامل والدم والإرهاب والقهر والجبر فذلك أسلوب يقلب النتائج التي عكسها .

وقديما نزلت أحكام تحريم الخمر فى القرآن بالهوادة والتدرج ولم ينزل تحريمها بغتة .

والله يعلمنا بهذا الأسلوب التشريعى التدريجى أن إصلاح الفساد المتمكن المترسخ لا يمكن أن يتم إلا بالهوادة والتدرج . . ولا يمكن أن يأتى إلا على مراحل . مرحلة بعد مرحلة .

وأنا أرى أن المرحلة الممكنة الآن هى أصلح نفسك ثم أصلح أهلك ثم جيرتك ثم كن لسان دعوة وحق فى مجتمعك .

فمن أتم هذه المراحل فى هذا الزمان فهو نبى عصره وهو بذلك يضع الأساس المتين لمن يبعثهم الله فيما بعد أطهارا أبرارا مؤيدين بروحه وملائكته لإحياء الإسلام على مستوى الأمة والعالم . . وذلك إن شاء ومتى شاء . .

ونسمع من البعض من يقول أن هذا اليوم قد اقترب وأن البعث الدينى قادم وقد أظلنا زمانه .

من كان يصدق أن رجلا منفيا مطرودا أعزل فى الثمانين من العمر مثل آية الله خمينى ينتصر وحده على إمبراطور وجيش جرار كامل العدد والعدة .

إن لم تكن تلك علامة على صدق الرجل فهى علامة على صدق الشوق فى قلوب الملايين التى تتلهف على بعث دينى .

نعم نحن نقترب ولا شك من هذا الزمان ، إن الشوق إلى الطهر والنقاء فى قلوب الناس حقيقة لا شك فيها .

ولكن مازال بين الشوق والهمة المطلوبة للتغيير مسافة كبيرة .

ولم يظهر بعد ذلك الرجل الكامل على قدم النبوة الذى يسير خلف النبى

حذو النعل بالنعل .

ذلك الرجل المؤيد من ربه الذى يسير خلفه الملايين حبا وطواعية واختيارا وتسليما .

ولكننا نملك التمهيد وإصلاح الطريق أمام هذا القادم وذلك بزرع الشوق فى النفوس وتنوير القلوب وتثقيف العقول والدعوة إلى الله بنفس الأدوات التى يريد المتطرفون تحريمها . . بالسينما والمسرح والتليفزيون والأغنية والكتاب والمجلة .

والفن بوق عظيم ينفخ فيه الهدامون والمفسدون ويدعون فيه إلى مبادئهم . . فلما لا نأخذه منهم وندعو فيه إلى مبادئنا بدل محاولة تحطيمه وتحريمه .

- إن الدعوة إلى تحريم الفن هى دعوة إلى تحريم العصر كله وهذا مستحيل .

بالهوادة يا إخوانى

بالهوادة تصلون إلى مرادكم

وبالرفق وبالتدرج تحققون هدفكم .

إن البنوك الحالية نظامها ربوى ولكننا لا نستطيع إلغاءها دفعة واحدة ولا نستطيع أن نتخلص من نمط الاقتصاد الغربى بقرار فورى لأننا جزء من عالم والعالم كله يتعامل بهذا النمط من الاقتصاد الربوى . . إنما يمكننا أن نضع بذرة طيبة بإنشاء بنوك إسلامية والتمكين لاقتصاد جديد منافس . . ثم ينمو هذا الاقتصاد المنافس شيئاً فشيئاً . . وذلك هو أسلوب الخطوة بخطوة .

ونفس الشىء فى التليفزيون لا يمكن أن يتحول دفعة واحدة إلى تلاوات قرآنية وتواشيح وابتهالات ومواعظ منبرية وإنما الحل هو ظهور فنون إسلامية

بديلة وبرامج عصرية هادفة وهذا أمر لا يمكن أن يتم فى أربع وعشرين ساعة وإنما هو أمر مرتبط بظهور طلائع جدد يكتبون ويبدعون .

ثم كيف نقطع يد سارق فى عشرة جنيهات ونترك سارق عشرة الملايين التى أخذها رشوة أو عمولة أو اختلسها اختلاساً من مال عام بحجة أن شروط القطع لا تنطبق عليه . . ألا يجب أولاً أن نبدأ بتعديل القوانين وبنظرة فقهية جديدة إلى روح الشريعة نحاول أن نستنبط أحكام تعزيز جـــديدة تلائم المتغيرات الجديدة .

إن المسألة تحتاج إلى اجتهاد وليس إلى هتاف . . رويدكم يا قوم .

الشيوعية العالمية . . إلى أين ؟

نزل الستار على الفصل الختامى من عام ١٩٧٨ بأحداث كالفوازير . . فيتنام الشيوعية تحارب كمبوديا الشيوعية ، الصين الشيوعية وأمريكا تتبادلان السفارات والقبلات ، العداء بين روسيا والصين يسارع إلى الذروة والمعركة بينهما تجرى فى ساحة بطول وعرض خريطة العالم .

المنشورات والشعارات الجديدة فى الصين تهتف . . العمل أفضل من السفسطة الأيديولوجية . . والربح أفضل من الديون . .

الشيوعية السوفيتية خلعت جلدها وانسلخت من أحشائها وناقضت نفسها فى محاولات أخيرة مستميتة لتكسب أرضاً جديدة . . فهى تهتف فى إيران . . يحيا الإسلام . . وتهتف فى أوربا . . تسقط ديكتاتورية البروليتاريا . ! وتهتف

فى سيبيريا . . مرحباً برأس المال الأمريكى والاستثمارات الأمريكية والخبرة الأمريكية .

الرفاق المحترفون يقولون : الصين خانت المبدأ . . والتاريخ يقول : وروسيا خانت المبدأ . . فمن بقى يا رفاق مع المبدأ . .

الشيوعى العدنى أو الشيوعى الكوبى . . وكلاهما يعيش عالة على المعونات السوفيتية ويعملان جنوداً مرتزقة فى خدمة الاستعمار الجديد فى أثيوبيا والصومال .

ثم ماذا بقى من المبدأ . .

وروسيا تأخذ الخامات من رومانيا بأسعار الكوميكون ، ثم تصنعها وتبيعها أسلحة وعتاداً حربياً وتطلب فيه أعلى الأسعار الرأسمالية ، وتشترط الدفع الفورى بالعملة الصعبة أو التقسيط بفوائد ربوية عالية تستنزف الشعوب إلى آخر قطرة من دمها الاقتصادى . . وحكاية الدفع فى مصر وحكاية الدفع فى سوريا تلوكها الجرائد كل يوم .

هل انتهى الحياء من العالم . . ولم يبق من الماركسية إلا صداعها ؟ ؟

تلك والله تورتة عيد الميلاد الدسمة التى يقدمها بابا نويل للعالم ، وذلك هو القربان الذى يقدمه إلى الله من دم الرفاق . . إنهم لم يتركوا للشيوعى الغلبان شيئاً يحارب من أجله ولم يدعوا له شرفاً ولا مثالا أخلاقياً يتحمس له والحرب إن قامت غداً بين أمريكا وروسيا فلن تكون حرب مبادئ وإنما ستكون حرباً بين خرتيت وخرتيت . . مجرد صراع على القوة وحرب على السلطة لا فضيلة فيها لغالب على مغلوب .

معركة بين ديناصورات يأكل بعضها بعضاً فلا يبقى منها إلا الذبول .

لقد جاءت حركة التاريخ على عكس ما تصور كارل ماركس على طول الخط لتثبت خطأ المنهج الذى استخدمه فى جميع تنبؤاته . . فحروب اليوم هى بين الشيوعيين أنفسهم والصراعات والعداوات تمزقهم فرقاً وطوائف كل يسار يظهر على يساره يسار يحاربه ، ولا نهاية للانقسامات التى أصبحت بعدد أهواء الناس ومطامعهم . . والذى يبقى فى كرسيه يبقى بالقمع والإرهاب وبسلطان أجهزة الزبانية التى يسمونها اليوم أجهزة الإعلام الشمولى التى تقوم بغسل مخ المواطن من كل شىء إلا ما يريده الحكام . . والحق ضائع فى ضوضاء الإذاعات وجلبة الشعارات .

ثم فجأة تأتى هذه الأحداث كالفوازير لتفضح كل شىء وتهتك الستر عن كل شىء ، فإذا نحن أمام أشخاص لا مبادئ ، ودول كبر لا أيديولوجيات ، وأطماع لا أفكار ، وأحقاد دفينة لا نظريات .

إن الماركسية لم تكن إلا مجموعة الذرائع التى تذرع بها الانقلابيون الجدد بدعوى التغيير ليصلوا إلى السلطة . . ثم بعد السلطة لم يتغير شىء . . . خرجت طبقة وجاءت طبقة وانتهى ظلم وبدأ ظلم أظلم . . . هذه المرة ظلم شمولى يجثم على الملايين بليله البهيم ولا أحد فيه يستطيع أن يصرخ .

والحاكم فى هذا النظام ديناصور . . وإله لا يخطئ . . كلماته دين وسيرته نموذج . . فإذا اجتمع الديناصورات على المائدة العالمية رأينا كل واحد ينحى مبدأه جانباً ورأينا المخالب تظهر من تحت المانيكير المذهبى ، ورأينا الأيديولوجية تتبخر فلا تبقى إلا لغة المصالح والمكاسب . . ومن تكون له السيادة . . ومن

تكون له القيادة . . ومن يحكم . . ومن يركب . . ورأينا حركة التاريخ لا يدفعها صراع الطبقة والطبقة وإنما صراع الدولة والدولة وصراع القومية والقومية وأحياناً صراع الأبيض والأسود . وأحياناً صراع الشخص والشخص ، وأحياناً أحقاد دفينة جاءت مع ميراث القرون . . تلك هي غابة الواقع . . لا تخضع لنظرية بل تكاد تكذب كل نظرية . . والإنسان هو مختصر هذه الغابة وهو مثلها لغز لا يمكن تبسيطه فى قانون أو معادلة .

ويكذب من يصور لنفسه أنه فهم النفس البشرية وأحاط بها ، بل يكاد الواحد منا لايفهم نفسه وهوأقرب الناس إليها ، وأن نفسه لتراوغهوتدلس عليه وتمثل عليه وتتنكر أمامه وتغلف شهواتها بالدواعى والمبررات والذرائع والنظريات . . فلا يعرف الواحد منا ماذا يريد وماذا يبطن ولا يعرف من يكون ولا من هو على وجه التحقيق ؟

وهو قد يعيش ويعمل ويكافح متصوراً أنه شهيد أو بطل ، ثم فى لحظة زمان وفى ساعة امتحان ينكشف على حقيقته دجالاً عظيماً . . وتكون المفاجأة مذهلة حتى له هو نفسه .

ومثل الإنسان الأمم والمجتمعات والتاريخ . . وهل التاريخ إلا الإ نسان فى حركة . . صدقونى أن دروس هذا العام وأحداثه تعلمنا الكثير .

لماذا ينتحرون ؟

الممثل الأمريكى العالمى جيج يونج قتل زوجته ثم قتل نفسه رمياً بالرصاص . .

والممثل الفرنسى شارل بوابيه مات منتحراً وكذلك ماتت زوجته منتحرة وكذلك مات ابنه منتحرا . .

ونجمة الإغراء الشهيرة مارلين مونرو قتلت نفسها بالحبوب المنومة . .

وسوزان هيوارد دمرت حياتها بالخمر . .

والان ديلون دمر حياته بالمخدرات . .

وأفا جاردنر لا تفيق من السكر . .

ومارلين ديترتش أصابها جنون السرقة . .

وجريتا جاربو أصابها جنون الاختفاء . .

وبين ممثلينا وممثلاتنا كثيرون وكثيرات أدمنوا الشراب لدرجة التلف .

هل هذا هو الفن . . ؟ ! !

إن الفن يقظة وانتباه ووعى وليس غيبوبة . . والإبداع الفنى صحو ، بل هو منتهى الصحو .

ولا يخرج الإبداع من ضباب المخدرات ولا ينمو فى بحيرات الخمر ، والفنان المغمى عليه لا يخرج منه شىء .

إنما هو الوسط والمناخ وتقاليد المهنة والشباب والكسب السهل ، ثم أدوار الحب التى تعود أن يعيش فيها النجوم بين أضواء الكاميرات وضجيج الإعجاب . . ثم لا يعود النجم بعد ذلك يدرى متى ينتهى التمثيل ومتى يبدأ الواقع .

ثم هذه العادة السيئة التى أدمنتها السينما العصرية وتنافس فيها المنتجون . . عادة تعرية الممثل والممثلة وعرض تفاصيل الحب والجنس على الشاشة الكبيرة .

ابتذال السرية والخصوصية وعرضها فى عمومية مطلقة لكل العيون .

التفريط الذى يصبح عادة .

والتفريط يؤدى بالتبعة إلى الإفراط .

ونتيجة التفريط والإفراط ألا تعود الحياة تساوى شيئاً .

تفسد الفطرة بتوظيف الأشياء فى غير مكانها . . وتنتهك الأسرار بعرضها فى غير إطارها .

وتلك هى الثغرة فى حياة النجم التى تظل تتسع وتتسع حتى تقضى عليه .

ثم هناك أزمة النجمة التى تعيش على جمالها ثم ترى جمالها يذبل ، وترى

الأضواء تنحسر عنها ، وترى نفسها تدخل فى منطقة الظلام ، ثم تختفى أخبارها ، ثم لا يعود يسأل عنها أحد . .

وهو أمر يحدث عادة فجأة بين يوم وليلة تماماً كما فى الروايات ، فجأة ينزل ستار النسيان وتنفجر فقاعة الضجيج وتنتهى الشهرة العريضة إلى لا شيء ، تلك هى حياة النجوم . . مكياج . . وديكور . . وأضواء . . وإشاعات . . وبريق مثل بريق السراب . . ثم ما يلبث أن ينطفئ كل شيء . . ولا تبقى سوى فطرة أفسدتها حياة مفتعلة غير طبيعية وذكريات نسجتها الأوهام .

إن النجوم لا يحسدون على ما هم فيه من ثراء وذيوع وانتشار . . فإنها صنعة مكلفة . . تكلفهم حياتهم ودنياهم وآخرتهم ثم لا يبقى منهم ولهم شيء .

وكما يأتى الانتحار نتيجة لحياة مادية متطرفة كذلك يمكن أن يأتى نتيجة لتدين متطرف وتطهر مريض مبالغ فيه .

إن ما أمر به المسيح من قتل النفس (ومراد المسيح كان بالطبع هو قتل الشهوات) . . هذا الأمر يمكن أن يصل به المتطرف إلى رهبانية خاوية قاسية ، أو إلى قتل فعلى بالانتحار كما فعل الأب جيم جونز وطائفته فى موعظة الانتحار الجماعى مردداً آية المسيح . . « من قتل نفسه من أجلى وجدها » .

وأهل التطرف من اليمين واليسار ، ومن أهل الدين والدنيا هم فى الحقيقة أصحاب مبدأ واحد ، وهم واقفون على أرض واحدة مهما خيل لهم أنهم مختلفون . . وهى أرض الرفض الكامل والكفر بكل شيء . . ويمكن أن يتمثل هذا الرفض الكامل فى قتل الآخرين أو قتل النفس .

والشر يمكن أن يتستر وراء الأقنعة المزيفة ويمكن أن يكسوه العقل

بالمبررات ، ويمكن أن تتوسل إليه النفوس المجرمة بالدين وبكلمات الأنبياء . . ولكنه يظل دائماً شراً

وقارب النجاة فى هذا الخضم من الشرور التى تترصد الكل . . هو الاعتدال . . والفهم الحقيقى للفضيلة بأنها الوسط العدل بين المتناقضات . . فهى لا يمكن أن تكون تهورا ، كما أنها لا يمكن أن تكون جبناً . . وهى لا يمكن أن تكون بخلا ، كما أنها لا يمكن أن تكون إسرافاً . . وإنما هى دائماً فى الوسط العدل الذى هو الشجاعة والكرم .

وذلك هو الوسط بين نجمة الإغراء مارلين مونرو وبين الأب القسيس جيم جونز . . بين انتحار أهل اليمين وانتحار أهل اليسار . .

ولكن بلوغ شاطئ الاعتدال أمر إيجابى يتم من خلال صراع ومجاهدة للنفس وللغرائز ، ومغالبة للنوازع بين شد اليمين وشد اليسار ، وهوليس أمراً سلبيًّا يأتى بالهروب والإغماء والاغتراب وعدم المبالاة . . وهو أيضاً ليس ثمرة ضعف بل ثمرة قوة وليس ثمرة غيبوبة بل ثمرة وعى .

وشاطئ الاعتدال هو الصراط المستقيم بعينه ، وهو الحق بنفسه ، وهو لا يأتى نتيجة قراءة عفوية لمقال ، وإنما يأتى ثمرة لإيمان يمازج القلب والجوارح ، ومعاناة تثمر الصحو .

ولنؤمن بالحق لا بد أن نكون على صلة بالحق ، والحق هو الله سبحانه وتعالى ، وهذا يعود بنا إلى الدين كمنبع وحيد للأخلاق والتكامل .

الدين إذن هو همزة الوصل الناقصة التى تؤدى إلى هذه الانفجارات الانتحارية ، وهو همزة الوصل الناقصة وراء كل تطرف عدوانى أو هروبى .

وغياب الدين من الساحة وراء كل هذه الظواهر التى تملأ أعمدة الأخبار .

وادعاء الدين نفاقاً وكذباً وانتهازاً أخطر من غيابه .

واستغلال الدين والتستر خلف راياته أخطر من الكفر .

وتلك هى الثغرات التى تتسلل منها كل تلك الجرائم .

لماذا الكوارث..

إن كل ما بالعالم من كوارث وأزمات ومحن وحروب ومجاعات ينبع من أصل واحد هو أزمة الضمير الإنسانى وما أصابه.

إن السماء لن تجود بالماء ولا الأرض بالحياة وأبناؤها يسفحون عليها الدم بغيا وجورا على بعضهم البعض فخالق الأرض وما تثمر من غلات هو الله وهو وحده الذى بيده مرفق المياه الذى ينساب من السماء كما أن بيده تغوير المياه الجوفية التى تخرج من الأرض وهو قد جعل الاجتهاد سببا فى الرزق كما جعل الطاعة والتقوى والمحبة مؤهلات أكبر خطرا.. ولاشك أن الشرور والمحن التى تغرق الأرض يواكبها على الناحية الأخرى موجات الكفر والشرك والوثنية والتدهور الخلقى وتفكك الأسرة وطغيان الظلم وغلبة الشهوات المادية على كل القيم والاعتبارات.. حتى فى

البلاد التى عرفت بتراثها العريق فى الدين والتدين نجد أن هذا التدين قد انحسر الآن إلى مجرد شكليات دينية فى حين انحرف السلوك إلى مادية مسرفة وراح الكل يتسابق إلى الكسب المادى والثراء العاجل على حساب جميع القيم الدينية.

وإذا كان ما يجرى فى أثيوبيا بسبب القحط والجفاف من موت الملايين جوعا وعطشا يذيب الفؤاد حسرة وألما.. فإن ما جاء فى تقرير لجنة المعونة البريطانية لأثيوبيا يستوقف النظر فقد جاء فى التقرير أن المعونة لاتصل إلى المستحقين وأنها تمنع عن القرى التى بها ثوار وأن هذه القرى تترك ليفترسها الجوع والعطش بينما تذهب المعونة إلى الجيش وإلى القوات الحكومية ويعلق التقرير على البذخ والملايين من الدولارات التى انفقتها الحكومة فى الاحتفال بأعياد الاشتراكية وفى الولائم والمسيرات الشبابية والمهرجانات فى أديس أبابا بينما الفلاحون يموتون هم وبهائمهم جوعا وعطشا فى القرى الاثيوبية وهو كلام يقال فى مواطن كثيرة ولدول كثيرة من العالم وليس لاثيوبيا وحدها.

إن الخير.. حتى الخير البحت الذى ينبع من الضمير لايوزع بضمير ويظل المبدأ هو نفس المبدأ.. أنا آكل وخصمى فى الرآى يموت..

ماذا يتوقع فى عالم كهذا..

إن ما يجرى داخل الأسرة وداخل الوطن من مظالم يظهر مكبرا على مساحة العالم كله ثم يعود فيظهر مترجما فى أحداث وأزمات وحروب ومحن وأوبئة ومجاعات.

بل أن ما يجرى فى ضمير الفرد من صراع وما تسكن رأسه من خواطر وما تتنازعه من رغبات هو المفتاح للمشكلة كلها..

وإذا كان البحر تلوث.. فقد تلوث بنا نحن وبما أفرزناه فيه،

إن فضلات أفكارنا ورغباتنا هى التى صنعت كل هذا.

سمعت الرجل يلوم زوجته ويلقى على رأسها وعلى النساء أجمعين ما بالعالم من بؤس.. فهى لاترضى ولاتشبع ولاتكف عن الطلب وهى كرباج لايكف ينزل على ظهره ليجرى ويهرول ويسعى ويكسب ويجمع ليضع ما جمع فى أيديها لتجرى هى بدورها إلى السوق لتنفق ما جمع وتطلب المزيد ولا هامش لديها للاكتفاء.

وإذا صدق الرجل فى شكواه فهو ملوم هو الآخر مثل زوجته فيبدو أنه لاهامش لديه للخضوع والرضوخ والضعف والاستكانة.. فهو ملوم لضعفه بمثل ما هى ملومة لطغيانها ولن تكون الذرية التى ينجبها الاثنان إلا استمرارا لهذه العيوب وتضخيما لها مع مرور الوقت.. وهكذا تتفاقم العيوب بمثل ما تتضاعف الأرقام فى متوالية حسابية.. وتتدهور الأجيال ويتدهور النتاج الإنسانى فنًا وفكرًا وسياسة.. ومع الوقت لن يكون التقدم العلمى فى مثل هذه المجتمعات حسنة بل عيبا لأنه سيضع فى يد هؤلاء الضعاف وسيلة دمار كلية يقضون بها على كل شىء وينسفون بها كل ما كسبه أجدادهم من تراث الحضارة وما بنوه وماشيدوه بعرقهم ودمائهم.

إن العلم سوف يسلح الحماقة.

وطاقة الذرة سوف تكون ذراعا للطغيان وأداة لحب السيطرة.

والصاروخ سوف يكون أداة للقهر والاستبداد.

وسوف تتجسد المأساة فى هذا المسخ الشائه الذى له ذراعا شمشون والذى له ضمير وغد محتال.

ولكنا جميعا وضعنا بذرة هذا المسخ ونحن جميعا أنجبناه وربيناه.

ولايملك أحدنا أن يبرئ نفسه.

وقديما قال عمر بن الخطاب «لو عثرت دابة فى العراق لرأيت نفسى مسئولا عما حدث لها» وهى قولة حق.. فما يجرى فى أى مجتمع هو محصلة أفعال أفراده وكل منهم مسئول بحسب مكانه تصاعديا من القاعدة إلى القمة.

إن ما يحدث لنا هو نحن وكل واحد لايقابل فى الطريق إلا نفسه.. المجرم تتسابق إليه مناسبات الاجرام والفاضل الخير تتسابق إليه مناسبات الخير والعطاء.

وبمثل ما تجود أيدينا تجود أرضنا وتجود سماؤنا لأن الذى خلق الكون خلق له القوانين الحافظة التى يزدهر بها طالما كان ناميا والقوانين الهادمة له إذا دب فيه الفساد ونخر فيه السوس.

وبنية المجتمع مثل بنية الجسم هى فى نماء وازدهار طالما غلبت فيها عوامل الانسجام والنظام والصحة فإذا غلب الاضطراب والفوضى

والمرض تداعت إلى تراب.

فلا تلوموا القدر ولا تحتجوا على السماء ولا تقولوا ظلمنا ربنا بهذه الكوارث..

بل قولوا ربنا ظلمنا أنفسنا..

ولينظر كل منا ماذا يفعل فى دولة نفسه وإلى أى جانب من رغباته ينحاز.. إلى لذاته العاجلة وإلى منفعته الذاتية أم إلى نجدة المحروم ونصرة الضعيف..

إلى الأصنام المادية يتوجه؟؟! أم إلى القيم.. أم إلى رب القيم ثم لينظر ماذا يفعل لا ماذا يقول.. وماذا يخفى لا ماذا يعلن.. وحينئذ سيعرف الجواب على سؤاله.. لماذا كل هذه الكوارث..

لا تستهينوا بالكلمات

إنا نسخر فى العادة من بضاعة الكلام ومن أحزاب الكلام .

وهل كان هتلر إلا كلاماً . . وهل دفع ألمانيا إلى جنون العظمة إلا كلام هذا الرجل ومن ورائه جوبلز وأبواقه ، ثم شباب مجنون يسمع فيشتعل حماسه ويهب على أوربا كالإعصار المدمر ، فيصنع الموت والخراب للملايين ؟

ألم نكن أسرى الكلام طيلة عشرين سنة من حكم عبد الناصر نحارب فى اليمن ونحارب فى الكونغو ونهتف للصداقة الروسية المصرية ونشتم فيصل والرجعية الإمبريالية الأمريكية ؟

وهل قتل يوسف السباعى إلا رجل كان عقله محشوًا بالكلام ؟

ألا تستدرج كلمات الحب عظام الرجال إلى مصارعهم ؟ ألا تلقى بشباب إلى اليأس والانتحار ؟

وتلك كلمات الباطل وما تفعله فى الأفراد والشعوب .

وتلك هى الأكاذيب حينما تخرج على الناس فى رءوس الصفحات وتلاحقهم فى الإذاعة والتليفزيون والكتب والصحف .

فما بال كلمات الحق وما تفعله .

هل خطر فى ذهنك أن كوبا تدخل فى حرب مع روسيا وأمريكا وتنتصر على الاثنتين . .

لقد حدث هذا فى الماضى البعيد حينما خرجت من قبيلة قريش طائفة حاربت الروم والفرس وانتصرت على الاثنين . . وقد انتصرت بكتاب هو القرآن ، حملها من شاطئ الفارسى إلى شاطئ الأطلسى .

ولكن الباطل يذهب بضوضائه فلا يخلف شيئاً ، فكذلك فعل هتلر وكذلك فعلت النازية ، وكذلك فعلت جيوش التتار والهكسوس ، وكذلك انتهت غزوات عبد الناصر.

أما الإسلام فهو باق فى الأرض بعد أن انهزم أهله . . وهو باق إلى أن تقوم الساعة . . برغم ما أصاب أهله وشعوبه من ضعف وتأخر وانحلال .

إنها الكلمات . . وسحر الكلمات . . وسلطان الكلمات .

فالكلمات حتى الباطل الكاذب منها يفعل ويؤثر ويقتل ويغير التاريخ .

ماذا فعلت كلمات الماركسية ووعودها وشعاراتها ؟ إنها قلبت نصف العالم على نصفه الآخر ومازالت تدفع وتحرض وتشعل الفتن فى كل مكان .

إنها الكلمات . . تلك العبوات الناسفة من الحروف . . التى أودع الله فيها أسرار الخير والشر.

وعلم الله آدم الأسماء كلها ليكون سيداً على الأسماء . سيداً على الكلمات كلها يستخدمها ولا تستخدمه .

ولكن الوضع انقلب فأصبحت الكلمة هى التى تحكم الإنسان . . أصبحت حاجبة للعقل بدلاً من أن تكون كاشفة للبصيرة .

وما أشد وقع الكلمات حين تكون شعراً .

وما أقسى حكمها على صاحبها .

ألم يفر المتنبى من قطاع الطريق الذين هاجموه فقالوا له فى سخرية كيف تفر يا جبان وأنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تشهد لى
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فلوى المسكين عنان جواده وعاد ليقاتل دون ماله حتى قتل .

وكان بيت الشعر فى الماضى ينفجر بين البوادى كالقنبلة الموقوتة ويشعل الحروب . . وهو الآن فتيل الإغراء الذى يحرق القلوب ويغوى العذارى من خلال الأغنية والموسيقى والألحان .

وتلك هى الكلمات .

والكلمة تخرج من فم الرجل فتكون طلاقاً بائناً ، أو مودة ورحمة . . والكلمة تخرج من فم الحاكم فتكون حرباً أو سلاماً أو استبداداً وإرهاباً ،

ومتى خرجت الكلمة من الفم فلا سبيل إلى استردادها .

إنها تخرج كالطلقة ولا تعود .

ونحن أحياناً نصور بالكلمات أشياء ثم نحبها . . وما نحب إلا كلماتنا وإن ظننا أننا أحببنا الأشياء .

إن عالم الكلمات يحجب عنا الحقائق كما تفعل الأستار والأقنعة والديكورات ، وكما يفعل الطلاء المزركش الذى تروج به البضاعة الرديئة .

يقول العارف بالله محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفرى :

* الحرف حجاب على معناه ومعناه حجاب على ماهيته .

* الحرف لا يمكن أن يعبر عن الله سبحانه لأنه من مخلوقاته . . إنما الحرف رمز وسرادق إظهار لما يبدى الله من آيات .

* غرقت الدنيا والآخرة فى الحرف ولا يغرق الحرف إلا برؤية وجهه سبحانه .

ويقول له ربه :

* لا ترانى إلا إذا تخطيت الحرف والمحروف وتجاوزت الكلمة والخاطر وفهمت بلا عبارة .

ويقول له :

* إن لى عباداً صامتين رأوا جلالى فلا يستطيعون أن يكلموه ، ورأوا بهائى فلا يستطيعون أن يسبحوه ، فلا يزالون صامتين حتى آتيهم فأخرجهم من مقام صمتهم إلىّ . . اصمت لى ما استطعت تكن عبدى الصامت .

عبدى الصامت أتلقاه قبل موقفه ، وأشيعه إلى داره . . وهو أول من أدعوه إذا جئت .

بين النطق والصمت برزخ فيه قبر العقل وقبور الأشياء .

ويقول له :

* يا عبد إن مجدتنى بتمجيد الحرف لهوت بلهو الحرف .

يا عبد إن تبت بلسان الحرف نقضت بلسان الحرف ، وإن أطعت بلسان الحرف عصيت بلسان الحرف .

يا عبد نزه تمجيدى عن الحرف وحدود الحرف . اكتب سبحتك بيدى على ظلى وأجعلك إذا التقينا من أهلى .

ويقول له :

* الحروف مادة الخواطر ومادمت أسير الخواطر فأنت فى شتات .

لا تكون فى جمعية معى إلا إذا جزت الخواطر ، ولا تجوز الخواطر إلا إذا خرجت من الحروف .

ويقول له :

* اخرج عن مسميات الحرف تخرج عن معناه ، فإذا خرجت عن معناه فأنا أقرب إليك من حبل الوريد . . اخرج عن كلمة حبل وعن كلمة وريد وعن لفظة «أنا» فإذا خرجت عن لفظية «أنا» فأنا الظاهر والباطن وأنا بكل شيء عليم.

ويقول له :

* الحرف فج من فجاج إبليس .

ويقول له :

* الحرف حرفى والعلم علمى وأنت عبدى لا عبد حرفى عبد علمى .

ويقول له :

* يا عبد من رآنى جاوز النطق والصمت وجاوز العلم والجهل وجاوز الحدية .

ويقول له :

* يا عبد إذا أردت ألا يخطر بك سواى ، وإذا أردت أن تخرج عن الكلمة والعبارة وما تحويه من فتن الدنيا وبادياتها فأقم فى « النفى » فى عتبة لا . . لا إله إلا الله . . واعلم أن النفى لا يكون إلا بى ، كما أن الإثبات لا يكون إلا بى . .

وأنى أنا الذى سوف أنفيك بفضلى عن « السوى » وسوف أثبتك بنعمتى فى جوارى وعنديتى .

تلك إلهامات رجل مضى على وفاته أكثر من ألف عام . . وأدرك بعلم من ربه أن الكلمة غواية ، وأن الحرف فج من فجاج إبليس . . وأنه لا كمال للإنسان إلا إذا عبر وجاوز الحروف واخترق حجاب الكلمات .

ولقد مات الرجل وغبر .

ولقد هلكت أمم وغبرت لأنها وقعت فى أسر الحروف واستعبدتها الكلمات وأغوتها الشعارات ولعبت بها شياطين العبارات .

يقول ذلك العارف العظيم إنه لا وصول لواصل إلا إذا خرج من حجاب الكلمات والحروف .

ولكن الكلمات والحروف هى سرادق إظهار لكل ما فى الدنيا .

الكلمات هى الوعاء لكل ما نرى ونسمع ونحس .

والخروج من الكلمات هو خروج عن الدنيا بحدودها وصورها .

وهو خروج عن سيطرة الأشكال وعن سيطرة كل جميل .

ولا خروج من هذه الفتن إلا بالخروج من النفس لأن الدنيا هى مجال النفس ومطمعها ومعشوقها .

إنه الخروج من جلدك وأنت فى جلدك .

يقول نبينا عليه الصلاة والسلام . . «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» أى انتبهوا إلى أنه لا إله إلا الله . . ولا يكن لكم تعلق بغير الله وأنتم فى الدنيا . . ويقول :

«عش فى الدنيا كعابر سبيل» أى بدون تعلق بشىء لتموت سليم القلب .

ويقول القرآن عن يوم القيامة :

(يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) .

أى سليم من جميع التعلقات . . ليس فيه إلا الله . . وتلك هى الطهارة الإسلامية بمعناها العميق .

ويقول نبينا عليه الصلاة والسلام «من تعلق بشىء وكل إليه» أى إذا تعلقت بغير الله خرجت من ولايته .

فأين نحن الآن من هذه الذرا الرفيعة .

وأين حضارتنا ومدنيتنا من هذه العتبة العالية التى كان يقف عليها ذلك النبى الكامل ومن بعده ذلك الصوفى العظيم .

وكم من مئات السنين تخلفت الإنسانية بعد هذه الذروة التى تقف وحدها وكأنها منارة وحيدة شامخة فى بحر من الضوضاء والكلمات .

ولقد حقق نبينا العظيم معجزة أكبر مما حقق كل الصوفيين وكان شيخاً لهم جميعاً ولكل الأجيال من بعدهم .

لقد نزل إلى الدنيا وباشرها دون أن يتعلق بها ، وعرف الغنى فكان غناه كله للناس . . وتعددت زوجاته فلم تشغله إحداهن لحظة واحدة عن ربه ، وكان سيداً وحاكماً وملكاً فلم يحجب عنه الملك تواضعه وعبوديته طرفة عين . . وباشر الكلام أحلى الكلام فلم تفتنه عباراته ولا حجبته عن عجز الألفاظ وقصورها إذ يناجي ربه قائلا . .

« اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ بك منك .

لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . . فقد توقف مقرًّا بالعجز ليقول :

لا أحصى ثناء عليك . . أنت كما أثنيت على نفسك ثم يقول :

« أعوذ بك منك .

فقد وسع الله كل النفع وكل الضر » .

ولم تعد الكلمات تصلح للتعبير .

فإنه هو هو وليس بعده شيء .

تلك هي الشخصية الجامعة التي ضرب بها النبي مثلاً للكمال البشري حينما يخوض الدنيا فلا يفقد طهارته ولاتتفرق همته بل يزداد بالمباشرة كمالاً على كمال .

وذلك هو المثل الأعلى للتصوف السني العالي (علم وعمل ومسئولية وقيم وأخلاق وعبادة لله ابتغاء وجهه)

وصاحبنا النفرى كان مثلاً آخر لتصوف أهل الخلوات وأهل التجرد وأهل التأمل وما بلغنا من هذه الأمثلة العظيمة شيئاً . . فما استطعنا أن نتجرد . . ولا استطعنا أن نخوض الدنيا ونسلم من أوحالها بل غرقنا فى الكلام .

نقلد الغرب مرة فنرطن بالإنجليزية والفرنسية واللاتينية .

ونقلد الشرق مرة فنرطن بالروسية .

ثم نعود إلى هويتنا . . فنبدأ بالكلام وننتهى بالكلام .

الجَهْلُ العِلمى

العلم وحده لا يكفى لأن يصون صاحبه . . فنحن نعلم ضرر التدخين وندخن ، ونرى الطبيب يعلم متالف الخمر ويشرب . . ونرى أكثر الناس يتبعون الشهوات والأهواء مع علمهم بحيوانية الشهوات وضلال الأهواء .

ونرى الأدباء والفنانين طلائع الوعى وقادته . . أهل إدمان وضحايا مخدرات .

ونرى القاضى يرتشى .
ونرى رجل القانون يسرق .
ونرى شرطة الأمن يعتدون على الأمن .
ونرى شهود الحق يحترفون الكذب .

ونرى أكثر الناس تهالكاً على الطعام هم كل بطين سمين أكرش ممن يعلم أن فى الأكل مقتله .

ونرى أستاذ الجامعة وحامل الدكتوراه يموت بالسكتة فى ملعب الكرة لأن الهدف دخل مرمى الأهلى أو مرمى الزمالك . . فهل جهل الأستاذ المتعلم أن مايجرى أمامه فى الملعب هو محض لعب . . وماذا نفعه علمه .

ونجمع كلنا على أن ما يعرضه التلفزيون سخف ومع ذلك نتجمع حول الشاشة ونمضى نحملق فيها كالبلهاء نخرج من مسلسلة لندخل فى مسلسلة .

ونرى رجل الدين أول من يسقط فيما ينهى الناس عنه . . فهل جهل الحلال والحرام ؟ ! !

إن الحيوان ليعلم الحلال من الحرام . . والقطة تأكل ما تلقيه لها بيدك وهى جالسة عند قدميك تموء وتتمسح فإذا خطرت لها سرقة لقمة كان لها موقف آخر فراحت تتلفت وتخالس النظر عن يمين وشمال ثم هبشت قطعة السمك وولت الأدبار لتأكلها فى الخفاء . وهى أفعال تدل على تمييز مؤكد بين اللقمة الحلال والحرام . . والقطة حيوان . . وهى لم تدرس الفقه فى الأزهر . . فما بال رجل الدين الذى تفقه وتعلم .

ليس العلم إذن هو مفتاح الشخصية .

ويمكن أن يكون عندك علم إينشتين ولا ينفعك علمك بل تكون أدنى الناس أخلاقاً وأرذلهم معاشرة .

وما اختلفت منازل الناس الخلقية بسبب تفاوتهم فى العلم . . بل سبب تفاوتهم فى شىء آخر . . هو الهمة والعزم . . فعلمك بضرر التدخين لا يكفى لأن

تتجنبه وإنما الأمر يحتاج إلى شىء آخر هو الهمة والعزم . . وهذا أمر لا يتحقق إلا إذا تحول العلم فى داخلك إلى شعور ومازج القلب فأثمر النفور والكراهية للأمر الضار واستنهض الهمة إلى رفضه .

وبالمثل لا يردع الدين صاحبه إلا إذا تحول العلم الدينى فيه إلى تمثل وشخوص وحضور للجلال الإلهى فأصبح يعبد ربه وكأنه يراه فتوقظ فيه تلك الرؤية الخوف والحب وتستنهض ما تراخى فيه من عزم وهمة .

وبدون هذه الهمة لا يثمر العلم أخلاقاً ولا يثمر حكمة . . بل ينقلب العلم إلى النقيض ويتحول إلى أداة بطش وظلم . وتلك هى جاهلية العلم التى نراها اليوم . . فالأجهزة الإلكترونية تستخدم فى السرقة . . والذرة فى الهدم . . والكيميا فى ابتكار المخدرات . . والتكنولوجيا فى الحروب . . والطب فى منع الحمل وإطالة اللذة . . والأقمار الصناعية فى التجسس . . وعلوم الفضاء فى وضع القنابل المدارية حول الأرض وتهديد الناس . . والمتفجرات فى تعبئة الرسائل الملغومة .

وتلك صورة مكبرة لقوم « عاد » الذين قال فيهم القرآن :

(أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون)
(١٢٨ – ١٣٢ الشعراء)

يقول لهم (اتقوا الذى أمدكم بما تعلمون) ليذكرهم أن هذا العلم الذى استخدموه فى الشر والعدوان كان مددا منه ، وأنه لو شاء لتركهم على البداوة والجهل فأولى بهم أن يتقوا .

وفى مكان آخر يقول عنهم :

(ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد) (٦ – ٧ – ٨ الفجر)

فتلك هى روسيا وأمريكا فى صورة مكبرة بإمكانات القرن العشرين . . تلك الدول العملاقة التى لم يخلق مثلها فى البلاد . . وترسانات الحديد والصلب ذات العماد والجيوش ذات الأوتاد . . والطغاة الذين يبطشون جبارين . . والعقول التى تسهر لتزرع قلوب الموتى فى أبدان الأحياء ، وتخضر الصحارى ، وتجوب الفضاء ، وتستولد الأجنة فى الأنابيب وتسعى إلى الخلود .

علم هائل يتقدم كل يوم فى عالم تتضاءل فيه الرحمة كل يوم ويذبل فيه الحب كل يوم مفسحاً الطريق إلى جاهلية شرسة مخيفة .

فهل يصدق علينا مثل الأولين ويأتى أمر الله فيجعل عالى هذه الحضارة سافلها ؟ أو نحن أمام بعث دينى وفجر روحانى يعيد لهذه الحضارة توازنها فتمشى معتدلة على قدمين بدلا من هذا القفز الأعرج على قدم مادية واحدة .

أعتقد أن الفجر القادم سيؤذن ببعث دينى يغير الموازين وأننا أمام أحداث جسام . . أحداث رحمة لا أحداث نقمة . . فهذا هو الطبيعى بعد فترة طويلة من انقطاع النبوات جاوزت ألف عام .

من الطبيعى بعد أربعة عشر قرناً من الفترة أن تعود كلمة الله فيكون لها العلو من جديد فى عالم يتعطش لهذه النفحة التى فيها حياته وينتظر النور فى عصر أطبقت عليه الظلمات من كل جانب .

أهو نزول المسيح . .

أم ظهور المهدى . .

لا أستبعد هذه الأمور فنحن ولاشك نعيش فى زمن « الدجال » . . وإن لم يظهر الدجال بشخصه بعد فهو موجود فى كل مكان من العالم بفكره وحيله وأساليبه وفلسفته . . ولم يبق إلا أن يعلن عن نفسه ثم تبدأ أحداث النهاية .

ولا يمكن أن يقطع الله عن عباده مدد رحمته وهم أحوج ما يكونون إلى تلك الرحمة فإنه سبحانه هو الرحمن الرحيم خلقنا برحمته ووسع خطايانا برحمته وأفسح لنا بعد الموت جنات رحمته .

لعبة تحرير الشعوب

يستخف بالإنسان الغرور أحياناً فيتصور أنه يمتلك مقاليد كل شيء ، وأنه يرزق ويعطى ويمنع ، ويبنى ويعمر ، ويحيى موات الأرض ، ويرفع الاستغلال عن كاهل الناس ، وينشر العدل والخير ، ويغير التاريخ .

ألا يمتلك العلم الذى ينقل به الجبال ، ويحول مجارى الأنهار ، ويقيم السدود ، وينزل المطر ، ويخضر الصحارى ، ويشفى المرضى ، ويطارد الميكروب ، ويقضى على الفيروس ؟

وهو ينخدع فى نفسه حينما يرى الظروف تستجيب لإرادته والبيئة المادية تنقاد لمشيئته ، والعجينة الاجتماعية تتشكل فى يده وتذل لسلطانه .

تلك الخدعة كانت الخميرة التى خرج منها الجبابرة والطغاة وسفاحو الشعوب أمثال : نيرون وهتلر ، وستالين ، وفرانكو ، وسالازار ، وموسولينى ،

ومونجستو . كل منهم تصور نفسه المحرر والمخلص واليد الخضراء ، وانخدع فى نفسه حينما استجابت له الظروف وانقادت البيئة وأسلمت الجماهير ، فرأى نفسه ينجز ويبنى ويعمر ، ويقيم المشاريع من عدم ، ويغير الخريطة الجغرافية ويبدل الخريطة التاريخية .

وادعى كل منهم فلسفة ومذهباً يبرر به ما يصنع حينما يحتاج الأمر إلى قتل المئات وسجن الألوف .

ستالين استخدم الراية الماركسية ليقول إنه يحرر الشعب من الجوع ، وإن الحرية هى أن يجد كل واحد ما يأكله ، وأنه سيوفر هذا للناس وليس لأحد أن يقول لا أو يحتج أو يعترض وكل من يعترض مخرب ومنحرف ورجعى عقابه الإعدام والسجن والتشريد .

وبهذا أعدم خمسة ملايين فلاح اعترضوا على نزع ملكياتهم الصغيرة ، وقال فى بساطة شديدة إنه قتل هؤلاء الفلاحين من أجل الرخاء والتقدم والعدل والحرية . . وغسل يديه من الأمر كله .

والجبارون على الشاطئ الآخر اتخذوا لأنفسهم مذهباً آخر وديناً آخر يبررون به القتل .

قال كل منهم إنه محرر الشعب ، وإنه يطلق يد الكل فى الملكية والاستثمار والإنجاز والإثراء دون حدود ، وليتنافس الكل فى بحر السوق فإذا أكل السمك الكبير السمك الصغير فهو لن يتدخل ، فهو يحب التنافس الشريف ، وإذا ظهرت حيتان تحتكر الماء والضوء فيمكن لمن يريد أن يصرخ ويحتج ويقول ما يشاء ضد من يشاء فى البرلمان فنحن بلد حر وأنا حررت الجميع .

وقال كل واحد من هؤلاء الجبارين إن نظامه ديموقراطى ، وارتفعت جعجعة الإذاعات بين اليمين واليسار ، يدعى كل نظام أن ديمقراطيته حقيقية وديمقراطية الآخر مزيفة .

واستمر القتل والظلم والسجن والتشريد فى الجانبين .

وتصور الجالسون على مربع السلطة أن هذا ثمن طبيعى للمنجزات الاجتماعية والتعمير والبناء .

واستمعنا نحن فى خلال عشرين عاماً إلى هذه النغمة المخدرة . . نغمة المنجزات والتعمير والبناء والكرامة والحرية ، فى حين كان القهر والقتل والسجن وانتهاك العقل وانتهاك الكرامة وانتهاك الحرية هى المأساة التى يعانيها كل بيت على أيدى مراكز قوى لخدمة الجالس على مربع السلطة ، والذى كان يغسل يديه من كل خطية ، معتقداً فى براءة شديدة أنه يصنع لنا الحرية والخبز والتقدم .

ولكن استجابة الظروف لم تستمر ، وانقياد البيئة لمشيئة الجالس على مربع السلطة لم يدم ، ومعجزة العلم الذى ينقل الجبال ويحول مجارى الأنهار ويخضر الصحارى لم تثمر المتوقع منها .

فالأرض التى أخرج منها الإنجليز دخلها اليهود ، والقناة التى أممها ردمها ، والوحدة التى أعلنها انقلبت انفصالا ، والتحرر من أمريكا انتهى إلى الوقوع فى قبضة روسيا والتأميم لرفع الإنتاج أدى إلى خفض الإنتاج ، والتوسع فى العمالة انتهى إلى بطالة مقنعة ، وألوف من الموظفين مكدسون فى المكاتب لا يعملون شيئاً . . ومجانية التعلم دون توسع مناظر فى المدارس والفصول والمختبرات انتهت إلى تكدس ألوف الطلبة فى الفصول وتدهور التعلم . . وصاحبنا الذى كان

يحارب فى الكونغو واليمن والسودان والجزائر وكان يحرض كل الشعوب على تحطيم كل العروش . . صاحبنا هذا حينما واتته الفرصة الذهبية ليحارب فى مصر بلده . . انسحب .

ماذا حدث ؟

هل أخطأت الحسابات ؟

لماذا لم يعد القدر يستجيب ؟

إن هذا لم يحدث لنا وحدنا بل نراه يحدث لجميع الجبارين من كل مذهب .

خرج فى روسيا من أحرق ستالين ، وأجدبت حقول أكرانيا الخصبة التى كانت تتدفق بالقمح ، واعترف خرشوف بالهبوط الخطير فى الإنتاج الزراعى وسوء الإنتاج الصناعى بسبب التأميم .

وجاءت فرقة كوسيجين برجنيف لتطلب الخبرة الأمريكية ورأس المال الأمريكى لتعمير سيبيريا ولتفتح فروعاً لبنك منهاتن فى روسيا .

ورأينا أمريكا على الجانب الآخر تأخذ الصين بالأحضان ، ثم رأينا الإخوة الشيوعيين يقتل بعضهم بعضاً فى فيتنام وكمبوديا .

ورأينا الصين ترفع عصاها على روسيا ، وسقط الشاه فى إيران هو ونظامه برغم المساندة الأمريكية ، ورأيناه يخرج هو وأسرته مهرولاً يبحث عن ملجأ على أثر صيحة أطلقها رجل عجوز فى الثمانين اسمه آية الله الخمينى .

ماذا حدث ؟

هل أخطأت الحسابات ؟

لماذا لم يعد القدر يستجيب لهؤلاء القادة العظام كما تعودوا وكما تعودنا منهم ؟

السر بسيط . . إن أكذوبتهم قد افتضحت ، فلم يكن أحد منهم فى أى وقت يملك مقاليد كل شىء ، ولم يكن الرزاق الوهاب المانع المعطى ، ولم يكن المحيي والمميت ، وإنما أجرى الله على يديه ما خدعه لبعض الوقت فظن نفسه محرر الشعوب وصانع الخبز والعدل والخير ومخضر الصحارى . .

فلما أصابه الاغترار وتصور نفسه مطلق اليد فى الأقدار والرقاب وأنه وحيد عصره لا يسأل عما يفعل ولا يحاسب نزع الله عنه الخلافة وكشف له عورته وأظهر له نقصه وقصم رايته .

فالحقيقة أنه لا أحد يستطيع أن يرزق أو يعطى أو يمنع أو يبنى أو يعمر أو يمنح حرية أو يرفع ظلماً إلا الله ، وأن كل ما يفعله الإنسان من هذه الصالحات هو فعل بالوكالة والاستخلاف والإذن والمشيئة الإلهية ، وأن الحاكم طول الوقت مجرد أداة لمشيئة الخالق ، والأسباب الطيعة فى يده مظهر من مظاهر التيسير والتمكين الإلهى

فكيف يستطيع حاكم أن يمنح الحرية لشعب وهو عاجز عن منحها لنفسه ، فقد يصحو ذلك الحاكم الجبار فلا يجد ذراعه ولا ساقه ويجد نفسه مشلولاً سجين فراشه لا يستطيع أن يبرحه ، وقد يفقد بصره فى لحظة بانفصال شبكى فلا يرى طريقه . . ثم هو يموت فى النهاية وينفق كالدابة بين كوكبة من الأطباء ومظاهرة من العلم فلا ينفعه علم ولا طب فكيف يمنحنا الحياة من لا يستطيع أن يمنحها لنفسه ؟ وكيف يحررنا من لا يستطيع أن يحرر نفسه ؟ وهل نفعت شاه

إيران سبعة آلاف مليون دولار وهو يبحث عن سكن فلا يجد . . وهو يأكل فلا يهضم ويضطجع فلا ينام ؟

يأيها الناس

متى تعلمون أن الحاكمية لله وحده ؟

وأنه وحده الذى يرزق ويعطى ويمنع ويبنى ويعمر ويخضر الصحارى ويغير التاريخ ويبدل الجغرافيا .

وأنه وحده المحرر والمخلص .

وأنه خالق الحرية فينا بالأصالة . وأننا نختار به وبما وهبنا من قدرات على الترجيح والإرادة والتنفيذ .

وأننا نرزق ونعطى ونمنع ونبنى ونعمر بما يمدنا من أسباب .

وأننا نحكم استخلافاً منه وتوكيلا عنه ولا نستطيع أن نفعل هذا إلا بإذنه ومشيئته ، وأنه استخلاف بأجل وميقات . . .

لا يستطيع جبار مهما بلغ جبروته أن يمد فى حكمه يوماً أو ساعة أو ثانية ، وإنما ينجح الحاكم فى الإصلاح والتعمير والتغيير وتثبت قدمه إذا حكم بالموافقة والانسجام مع القوانين والسنن الإلهية وإذا أحسن الخلافة والوكالة عن سيده .

فإذا خرج عن القوانين الإلهية إلى حكم هواه وشهواته وإذا نسى ختم التوكيل وظن نفسه السيد مطلق اليد فى مصائر الناس ، وإذا أصابه الكرسى بدوار الكبرياء والعزة فقد سقط عن كرسيه وسقطت عنه الخلافة . . . وانتهى أمره إلى الإحباط والطرد .

وأخطأ من تصور أن له محرراً سوى خالقه فعلق أوهامه بهذه الدمى

والعرائس التي تتداول على كراسى السلطة . . إنما هو ديكور من ورق اللعب .

وامتحان يعلم به الخالق توجهات قلوب عباده فلا تعلقوا قلوبكم بأحد سواه ، واعلموا أنه هو وحده الذى يحرك العرائس ويضعها على عروشها ثم يسقطها ثم يأتى بغيرها ، وأنه هو وحده محرر الشعوب ، وصانع المنجزات ، وأن الرخاء يأتى من عنده وأن تخضير الصحارى مشروعه وإلهامه والتكنولوجيا بعض علمه الذى أتاحه لنا . . وأننا لا ندور وحدنا فى فراغ . . وإنما نحن طوافون حوله نتلقى عنه الليل والنهار ذلك هو الله رب العالمين

لا إله إلا هو

له وحده الحاكمية

وتلك هى حقيقة كلمة التقوى التى علمها الله جميع أنبيائه .

لا إله إلا الله .

عن الفن والدين

الفن والدين كلاهما يتنافسان على القلب . . وما أكثر ما أصابت الغيرة رجال الدين فرموا الفن والفنانين بالكفر .

وما أكثر ما تصالح الاثنان فانضوى الفن خادماً للدين يرسم له المحاريب ويزين السقوف وينحت التماثيل ويرتل الأناشيد .

وفى مصر مشرق الحضارة والأديان كانت مسيرة الفن والدين واحدة . . شيد الفن للدين المعابد والأهـرام والمسلات وأبدع له الأغانى والتراتيل ، وصمم له الرقصات ، وكان موكب جمال وزينة لرجال الكهنوت .

وفى كنائس الفاتيكان أبدعت ريشة ميكائيل أنجلو ورفاييل فى رسم الجدران والسقوف وتألق فن البناء القوطى فى بناء الأبراج ، وفى العصر الإسلامى ازدهرت العمارة والزخرفة .

ووصف القرآن الشعراء فقال إنهم قوم يهيمون فى كل واد ، وأنهم أهل غواية ولكن منهم الصالحون المؤمنون .

(والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا) ، (٢٢٤ – ٢٢٧ – الشعراء) .

فلم يرفض القرآن الشعر ولا الفن بإطلاقه وإنما جعل من الفنانين فريقين . . فريقاً من أهل الكذب ، وفريقاً آخر من أهل الصدق والإيمان . . فأقام بذلك موازين ثابتة للحكم على الفن وتقييمه .

ثم جاء بعد ذلك أهل التطرف والمغالاة فحاربوا فن الرسم والتصوير والنحت وحرموه على إطلاقه ، كما حرموا الموسيقى والغناء والرقص .

وسمعنا اليوم من يقول إن السينما حرام على إطلاقها ، كما أن المسرح حرام والتليفزيون حرام وكلها موجات من التطرف والتعصب لا أساس لها فى قرآن أو عقيدة .

وكلنا نعلم من السيرة أن النبى عليه الصلاة والسلام استمع إلى شعر الخنساء واستزاده واستحسنه .

كما أن القرآن فرّق بين الفن الهابط والفن العالى ، وهو ميزان ينطبق على كل فروع الفن .

وفى الموسيقى هناك السيمفونى الذى يحرك الوجدان وهناك موسيقى الجاز التى تحرك الغرائز ، وفى المسرح هناك مسرح العبرة والحكمة والعظة ، وهناك مسرح الهزليات والنكات الرخيصة . . وفى السينما هناك الفيلم التاريخى والفيلم العلمى

والفيلم التسجيلي ، وهناك الدراما العظيمة التي تربي وتعلم كما أن هناك أفلام الإثارة الهابطة والبرونوجرافي الفاحش .

وفي الأغنية هناك القصيد الجميل كما أن هناك الأغنية السوقية العارية .

كما أن تحريم الرسم والتصوير والنحت قياساً على ماجاء من أحاديث نبوية في هذا الباب قياس خاطئ ، فالنبي حرم الصور والتماثيل لأنها كانت تعبد وتتخذ في البيوت آلهة . . أما الآن فلا أحد يعبد صورة ولا أحد يسجد لتمثال .

ثم دعونا ننظر إلى آيات صنعة الله في الطبيعة .

ألا نراه قد خلق طيوراً تغني ، وعصافير تغرد ، وخيولا ترقص ؟

ألا نراه قد رسم أجنحة الفراش وزخرف الطواويس ونحت أجسام الحيتان وعرائس البحر كأنها الغواصات في انسيابها وجمالها ؟

ثم تعالوا نسأل :

ماذا تفعل بنا مشاهدة مسرحية لشكسبير أو الاستماع إلى سيمفونية لبتهوفن أو رؤية باليه بحيرة البجع ؟

هل تنحط بنا هذه الفنون أو ترتفع ؟

هل تستحضر في الذهن شهوات غريزية أو تستحضر خيالات ملائكية ومعارف إلهية ؟

إن الفن الراقي يقيم معبداً للجمال في القلب .

وهل ربنا إلا الجمال والكمال والحق والخير .

إن القرآن على ترفعه وقداسته قد روى لنا جانباً جنسيًّا من حكاية يوسف وامرأة العزيز ، وكيف غلّقت امرأة العزيز الأبواب وقالت هيت لك ، وكيف

همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، وكيف وجدوا أن قميصه قُطِع من دُبُرٍ فعلموا من ذلك أنها هى التى راودته عن نفسه .

ولكنها كانت لمحة خاطفة للعبرة لم يعمد القرآن فيها إلى إفاضة أو تفصيل أو تجسيد ، وهذا مثال ومقياس نفهم منه أنه يمكن أن تتطرق الرواية إلى الجانب الجنسى فتلمح وتوجز بالإشارة الخاطفة ودون إفاضة وتجسيد وتفصيل وإثارة فلا يتنافى هذا مع جلال الهدف وجمال الأثر .

ومن ذلك نفهم من آيات الله فى كتابه ومن آيات الله فى كونه أن الفن والجمال كالعلم والفكر نشاط إنسانى محمود وعظيم وأنه من آثار نفخة الله الربانية فى آدم ونسله ، وهى النفخة الروحية التى استوجبت سجود الملائكة وتسخير الكون لهذا المخلوق من طين .

(إنى خالق بشراً من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) .

أما الغلاة والمتطرفون الذين يريدون تحريم كل الفنون على إطلاقها فهم من الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم .

ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

وهم الجاحدون بنعمة الله حقاً .

أو لعلها الغيرة من دائرة الضوء التى يقف فيها الفنان محاطاً بجمهوره .

أو لعلها الفتنة التى تورث الفنان الغرور فتهبط به من رفيف الملائكة إلى وسواس الشياطين . وكل الواقفين فى دائرة الضوء معرضون لدوار الرءوس وغواية النفوس إلا من عصم ربك .

ولكن تظل قضية الفنان وعيوبه قضية أخرى غير قضية الفن ومكانه .

فقد بدأ الإنسان يرسم ويصور من بدايات العصر الحجرى فكان فنه علامة على إنسانيته ولا يزال .

والفنان مهما طوحت به الأهواء والشهوات تراه ساعة يمسك القلم قد تجرد وتحول إلى راهب متبتل راعش القلب ساجد الفؤاد .

ولا غرابة فى ذلك فمدد الدين والفن من عين واحدة ، هى العين التى تنورت بها كل المظاهر وهى العين التى اخضرت بها الصحارى وازدهرت الحياة وأضاءت النجوم وابتسم الوليد وغرد الكروان .

الفنان ورجل الدين كلاهما يأخذان من يد واحدة .

إنما يسقط الفنان حينما يتصور أنه يأتى بما يأتى به من عند نفسه . . وتلك هى بداية الغواية .

كلنا فى نفس السفينة

السارق الذى يسرق فى غفلة من العيون يتصور فى العادة أنه يقوم بعمل من أعمال الذكاء . . كما يظن الانتهازى الذى يقفز على أكتاف الآخرين بالرشوة واختلاس الفرص أنه أمهر وأقدر من غيره . . كما يتخيل صاحبنا الذى يخترق إشارة المرور أو يحدث أعلى ضوضاء فى الشارع أو يلقى بمخلفات بيته أمام باب جاره أو يتهرب من الضريبة أنه شاطر وصاحب حيلة وأنه استطاع أن يفوز بنصيب الأسد فى مجتمع المغفلين .

ولو أن هؤلاء تابعوا فاتورة أعمالهم إلى مجموعها النهائى ، وتابعوا ما تعرضوا له من خصومات لفوجئوا بأن الأعمال ترتد على صاحبها دائماً فالذين يخترقون إشارات المرور يتعطلون فى النهاية أمام اختناقات وحوادث تخصم من رصيدهم وأعمالهم أياماً وشهوراً فى المستشفيات . . والذى يتبول فى النهر هو الذى يشرب

منه . . وعادم السيارة يزكم أنف صاحبها كما يزكم أنوف الآخرين . . ورشاش المبيدات يقتل الحشرة الضارة والحشرة المفيدة ويصيب السمك فى البحر والفاكهة على الشجر ويصل إلى لبن المرضع ولا يزال يتنقل حتى يصل إلى أكباد هؤلاء الذين رشوا المبيدات وإلى أيديهم فيشلها ويتلفها .

إن الشر والفساد له دورة يدور فيها يوزع فيها الأضرار على كل من يمر بهم ولا يزال يتنقل حتى يصل إلى صاحبه فيصيبه . .

وهذه الدورة لا تعفى أحداً ..

كلنا فى نفس السفينة .

والذى يخرق السفينة أو يحاول أن يسرق منها لوحاً أو مسماراً سيكون نصيبه الغرق مع الباقين . لن يقول أفلت بنصيبي من مجتمع المغفلين . . فحقيقة الأمر أنه أول هؤلاء المغفلين وأكثرهم غباء . وأنه لن يفلت .

وإنما أذكى الكل هو الصادق المستقيم الفاضل الأمين .

ولو أدرك المجرم أن جريمته ستصيبه لتردد فى ارتكابها ولكن قصر النظر صور له أنه سيهرب والحق أنه لم يكن يرى أبعد من أنفه .

فالعالم اتصل الآن وتقارب وتلاحم وأصبح كنقطة فى فنجان . وقنبلة ذرية تطلق فى صحراء نيفادا يمكن أن تغير علاقات الطقس فى الفلبين وتثير غباراً ذرياً يؤثر على المواليد فى أستراليا ويقتل الأجنة فى اليابان . . ولذلك يجتمع الآن السياسيون العقلاء ليتفقوا على عدم تفجير القنابل الذرية وعلى الحد من الأسلحة النووية ، وعلى الحياة فى السلام ، لأن الحرب سوف تقضى على الغالب والمغلوب ولن يسلم من المعركة أحد .

إن تاجر المخدرات لن يهرب سليماً بغنيمته فقد خلق مجتمعاً من المخدرين وهو يعيش ضمن هذا المجتمع ويتعامل معه وسوف تصيبه الشرور التي أطلقها إن لم يكن اليوم فغدا أو بعد غد وإن لم ترتد عليه فعلى بيته وأولاده .

والعالم بفضل العلم والأقمار الصناعية واللاسلكى والتلكس والتليفزيون أصبح صغيراً جداً . . أصبح غرفة واحدة وعائلة واحدة يرى الواحد فيها الآخر ويكلمه بمجرد الضغط على زرار .

فأين يهرب المجرم بجريمته ونحن فى سفينة واحدة .

متى ندرك هذا ونعيه جيداً ؟ ! ! !

لو أدركناه ووعيناه جميعا لانتهى الإهمال والتواكل والرشوة والتسيب فى بلدنا ولأصبحنا على مستوى المواطن الأوربى فى شهور .

من هو العارف بالله ؟

معرفة الله خشيته وخشيته طاعته ومن لم يطع ربه فما عرفه ولو كتب المجلدات ودبج المقالات وألف النظريات فى المعرفة الإلهية .

ولقد كان إبليس فيلسوفا وعالما ومجادلا وكان يبهر الملائكة بعلمه وفلسفته حتى لقد سموه طاووس العابدين لفرط زهوه بعلمه وعبادته ، وقد ظل سبعين ألف سنة يعبد ويتفلسف ويجادل ، والملائكة يتحلقون حوله يستمعون ويعجبون . . ولكن الله كان يعلم أن هذا المخلوق المختال المزهو المتكبر الذى يحاضر فى المعرفة الإلهية هو أقل مخلوقاته معرفة به وأن كلامه لا يدل على قلبه . وإنما سيد الأدلة على المعرفة وعدمها هو السلوك عند الأمر والنهى (ساعة يتصادم الأمر مع الطبع والهوى ويجد المخلوق نفسه أمام الاختيار الصعب) وهذا هو ما حدث حينما جاء أمر الله ، لإبليس بالسجود لآدم فشق ذلك على كبريائه

واستعلائه وزهوه وساعتها نسى ما كان يحاضر فيه منذ لحظات . . نسى مقام ربه العظيم وجلاله وعظمته ولم يذكر إلا أنه مأمور بالسجود . ولمن ؟ ؟ لبشر من طين وهو المخلوق من نار . : فرد الأمر على الآمر وجادل ربه . كأنه رب مثله .

(قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين) « صٓ : الآية ٧٦ » .

(قال أأسجد لمن خلقت طينا) « الإسراء من الآية ٦١ » .

وسقط إبليس مع أجهل الجاهلين فما عرف إبليس ربه حين جادله وحين رد الأمر عليه . .

ولم تغن النظريات التي كان يدبجها ولا الحذلقات التي كان يبهر بها الملائكة والتي كان يصور بها لنفسه أنه سيد العارفين .

وإبليس اليوم هو العقلانية المزهوة المتكبرة فى سلوك وفكر الإنسان العصرى .

إبليس هو التعجرف العقلانى فى الفلسفة الغربية .

وهو الإرهاب الفكرى فى الأيديولوجيات المادية .

وهو العنصرية عند اليهود .

وهو سيادة الدم الأزرق فى النازية .

وهو وهم الجنس المختار عند البروليتاريا (صناع التاريخ وطلائع المستقبل) .

وهو فكرة السوبرمان عند نيتشه .

فكل ذلك هو الجهل والكبر وإن تسمى بأسماء جذابة كالعلم والفلسفة والفكر .

والحيوان عنده علم أكثر من علم هؤلاء الناس .

القطة تأكل ما تلقيه لها وهى تتمسح عند قدميك فإذا خالستك وسرقت السمكة من طعامك أسرعت تأكلها خلف الباب . . إن عندها علما بالشريعة وبالحلال والحرام أكبر من علم رئيس المافيا الذى يقتل بأشعة الليزر ويفتح الخزائن بأجهزة إلكترونية .

والفلاح البسيط الذى يطوف بالكعبة باكيا مبتهلا عنده علم بالله أكبر وأعمق من علم دكتور السوربون المتخصص فى الإلهيات .

وأنا ولا شك قد حشوت رأسى بكمية من المعارف الإلهية أكثر بكثير مما كان فى رأس أبى رحمة الله عليه . . ولكنى لا أرتاب لحظة فى أنه عرف الله أكثر مما عرفته وأنه بلغ سماء المعرفة بينما أنا ما زلت على أرضها حظى منها شطحات وجدان .

وإنما سبقنى أبى بالطاعة والتقوى والتزام الأمر .

وكما قلت فى بداية مقالى معرفة الله هى خشيته وخشيته طاعته ومن لم يطع ربه فما عرفه ولو كتب المجلدات ودبج المقالات وألف روائع النظريات .

وما كان الأنبياء أنبياء بمعجزاتهم وخوارقهم وإنما باستقامتهم وأخلاقهم .

ولم يقل الله لمحمد « إنك لعالم عظيم » بل قال (وإنك لعلى خلق عظيم) .

ولقد كان راسبوتين يشفى المرضى ويتنبأ بالمغيبات ويأتى الخوارق وهو أكبر فساق عصره .

وسوف يأتى المسيخ الدجال فيحيى الموتى وينزل المطر ويشفى المرضى ويأتى الأعاجيب والخوارق فلا تزيده معجزاته إلا دجلا .

وما أكثر العلماء اليوم ممن هم مع الأبالسة .

وما أكثر الجهال (فى الظاهر) وهم من سادة العارفين .

وما عرف ربه من لم يبك على نفسه وعلى جهله وعلى تقصيره .

ولهذا يقول ربنا عن الآخرة إنها (خافضة رافعة) لأنها سوف ترفع الكثيرين ممن عهدناهم فى الحضيض وسوف تخفض الكثيرين ممن عددناهم من العلية . . فلن يكون مع الله إلا الذين عرفوه .

وليس العارفون هم حملة الشهادات وإنما هم أهل السلوك والخشوع والتقوى وهؤلاء قلة لا زامر لهم ولا طبال . . وليس لهم فى الدنيا راية ولا موكب . . وسلوكك هو شاهد علمك وليس الدبلوم أو البكالوريوس أو الجائزة التقديرية أو نيشان الكمال من طبقة فارس الذى يلمع على صدرك . . إنما كل هذه مواهب إبليسية تنفع فى دنيا الشطار ثم لا يكون لها وزن ساعة الحق .

أما العارفون الذين هم العارفون حقا فهم البسطاء أهل الاستقامة والضمير الذين تراهم دائما فى آخر الصف . . إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا . . وإذا ماتوا لم يمش خلفهم أحد .

هؤلاء إذا دفنوا بكت عليهم السماوات والأرض وشيعتهم الملائكة .

جعلنا الله منهم .

فإن لم نكن منهم فخدامهم السائرون خلفهم والطاعمون على فتات موائدهم .

الخروج من الظلمة إلى النور

يقول الله سبحانه وتعالى فى قرآنه :

(هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما) « ٤٣ - الأحزاب » .

أى أن الله يصلى على المؤمنين هو وملائكته (أى يتولاهم برحمته وعنايته) ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

والسؤال كيف يتم هذا الإخراج من الظلمات إلى النور وما شواهده فيما نرى حولنا من تقلبات الناس فى أحوالهم .

إننا نراه فى تحولات الناس من الكفر إلى الإيمان ومن الجهل إلى العلم ومن السفاهة إلى الحكمة ومن الضلال إلى الرشد ومن الحيوانية إلى الإنسانية ومن الشهوة إلى التعقل ومن التعقل إلى الاستبصار ومن الخطيئة إلى التوبة ومن التوبة

إلى التطهر ومن التظالم إلى التعاون والمروءة . . فتلك كلها مسيرة من الظلمة إلى النور .

فكيف نراها تحدث فينا وفى الناس .

وماذا تقول لنا خبراتنا .

إنى أراها تحدث دائما من خلال المعاناة والمكابدة وتولد بالألم والمخاض والأوجاع .

فالخطب والمواعظ والكتب لا تستطيع أن تصلح إنسانا بل إن النبى بحضرته الكاملة لا يستطيع أن يهدى واحدا ولا أن يخرج نفسا واحدة من الظلمة إلى النور إلا أن يشاء الله .

(إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) . « ٥٦ - القصص » .

وإنما هو مجرد مبلغ ونذير وبشير .

وكل ما يقال فى المواعظ والخطب والكتب هو إبلاغ وإعلام لا يهدى ولا يغير إلا إذا أيدته المشيئة .

وحينئذ سوف تعمل تلك المشيئة من داخل النفس من خلال أسباب قد تبدو أحيانا من الظاهر مادية .

فقد رأينا استنارة أديب عظيم مثل طه حسين ترتبط بسلبه نور البصر وإظلام عينيه .

وقد رأينا كيف أدى هذا الإظلام إلى مكابدة داخلية ومعاناة أثمرت فى النهاية انفتاح البصيرة وإلى نور يتدفق على قلمه . .

وهكذا خرج النور من بطن الظلمة .

إن أشد الناس بلاء هم الأنبياء ولقد عانوا جميعهم المرض والفقر واليتم والاضطهاد والقتل والنفى والتشريد والتكذيب ومثلهم الأولياء والمصلحون والحكماء والقادة الشرفاء وأصحاب كلمة الحق فى كل عصر.

كلهم كابدوا وتألق نورهم بالمكابدة

وما أشبه ذلك الإخراج من الظلمة إلى النور بالجراحة وشق اللحم وخروج الأجنة من ظلمة الأرحام من خلال المخاض المؤلم والصراخ والتوجع .

ولهذا قالت لنا الآية — إن هذه المائدة من الآلام تحفها صلوات الله وملائكته .

(هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور) « ٤٣ — الأحزاب » .

فذلك هو الرحمن الذى يرحم بالعذاب . . والذى وسعت رحمته كل شىء . . حتى ليقول لنا عن عذاب الآخرة ونارها .

(باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَلِه العذاب) « ١٣ — الحديد » .

الكل مهاجر إلى الله دنيا وآخرة من الظلمة إلى النور . . ولا توقف للمسيرة . .

وهى مسيرة يحفها العذاب ويصاحبها الألم .

بل هى كدح

(يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) « ٦ — الانشقاق » .

الإنسان على إطلاقه . . المؤمن والكافر الكل فى كدح وهجرة إلى الله .

البعض يدرك هذه الهجرة ويسعد بها ويفرح بآلامها وهؤلاء هم المؤمنون . والبعض الآخر لا يدرى بها ويظن أنه مكافح بعقله وهؤلاء يسبون الدهر ولا يدركون أن بعد الألم يأتى الفرج والانفراج ويطيب الثمر . . وهؤلاء هم الكفرة . . وهم مسوقون فى هجرتهم بالعصا والكرباج . . لا تحف بهم الملائكة بل تزفهم الشياطين .

أما المؤمنون فيهرولون فى كدحهم يستعجلون اللقاء ويطربون للقرب ويستشرفون أنوار ربهم على الأفق وتتنزل عليهم الملائكة .

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) « ٣٠ — فصلت »

وفى آية أخرى :

(لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) « ٦٤ — يونس »

وهو اعتراف من القرآن بظهور الكرامات ومخاطبات الملائكة للخاصة من المؤمنين . من أهل الكدح والصبر والاستقامة وهذا زكريا .

(فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب) « ٣٩ — آل عمران »

ومريم . . كانت تأتيها الملائكة بالرزق فى سلة وأم موسى .

(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) « ٧ — القصص »

فتلك مكالمات ولطائف من صحبة الله وملائكته للمؤمنين فى عذابهم وبشاراته للخاصة منهم .

وهو توكيد لهذه المسيرة من الظلمات إلى النور وكيف إنها مسيرة عذاب

ومعاناة ومكابدة . . وكيف أن النور ينشق دائما من الظلمة بمخاض وألم وجراحة .

بل أحيانا تكون الجراحة جراحة بدنية بالفعل .

وأنا أذكر أنى أجريت فى حياتى العديد من الجراحات ارتبطت آلامها المضنية بنمو خاصية التأمل والتفكر فيما أقول وفيما أكتب .

وطرائق الله فى إصلاح عباده ليس لها حصر .

ولا أحد يستطيع أن يحدد رحمته أو يحصر فضله ولكن من عجائب ما يثمر التأمل . . أن الفقر والمرض والألم والمكابدة والمعاناة . . غالبا ما تكون هى وسائل رحمته وعين فضله .

ومن يدرك هذا يتعلم التفويض والتسليم وإسقاط التدبير والتزام الأدب مع الله وعدم الاعتراض على السلب والمنع بل يشكر ربه على المنع كما يشكره على العطاء بل ربما خاف العطاء وخشى منه الفتنة واستراح إلى المنع ورأى فيه المنة .

وتلك بعض أسرار المكر الإلهى الذى يخشاه العارفون جعلنا الله منهم وأخرجنا من ظلمتنا إلى نورنا بالألم والمكابدة لنشكر له الألم ولنشكر له المكابدة ولنشكر له النور . . فلا شىء كالنور ولو خرج من النار .

ألا يخرج النور دائما من النار .

ألا يخرج نور الشمس من نارها الباطنية التى تهلكها وتستنفدها . . وكأنما كل شعاع يأتينا أشبه بصرخة معها أنين ذلك الباطن الذى يفنى ويهلك لنعيش نحن ونستدفئ ثم ألا تبدو شريعة رجم الزانى أشبه بالحيلة الأخيرة لاستخراج نوره وذلك بتكسير غلافه البشرى بالكلية .

والعجيب فى أمر هذه الشريعة أنه لا يتأتى تنفيذها إلا اعترافا وتطوعا واختيارا من الزانى لأن الله اشترط فيها شهودا أربعة يشهدون على أنهم رأوا الإدخال ورأوا العضو يدخل فى العضو دخول المرود فى المكحلة وهذا أمر مستحيل . . فلا يتأتى تنفيذها إذن إلا باعتراف اختيارى يقوم فيه الزانى بتسليم نفسه وحتى هذا الاعتراف أقام النبى فيه التحفظات فكان إذا تقدم منه زان اعترف على نفسه رده عن اعترافه وقال له . . لعلك جننت . . ليعطيه فرصة للإفلات فيقول له الزانى . . بل إنى عاقل فيقول نبى الرحمة ﷺ . . لعلك قبلت وذلك ليس بزنى . . فيقول له الزانى . . بل زنيت . . فيقول النبى . . لعلك عانقت . . فيقول الزانى . . بل أدخلت . . فيقول . . لعل الأمر لم يتم . . فيقول الزانى . . بل تم .

وحينئذ يسلمه النبى إلى الرجم . . فهذا رجل يلاقى الهوان من سلطان جسده عليه ويعترف على نفسه بأن هذا الجسد استعبده فى لحظة . . ويريد أن يحطم هذا الجسد ليتخلص ويتطهر .

وتلك حالة من حالات الوعى العالى المتسامى ، ولهذا يقول النبى عليه الصلاة والسلام عن « ماعز » أحد الزناة الذين رجمهم حين تأفف عمر من رشاش دمه . . يقول النبى . . والله إن توبة هذا الرجل لو وزعت على أهل الأرض لكفتهم .

فتلك حالة من حالات الاستنارة الباطنية يتوسل صاحبها إلى الخلاص ولو بكسر غلافه المادى .

وذلك عقاب ذاتى وتطهير ذاتى تحف به صلوات الله والملائكة لأن صاحبه

يطلب استخراج نوره بأفدح الأثمان .

والسؤال لماذا رفعت آية الرجم من القرآن رغم ورود آية الجلد .

أهو إغراء بالتوبة وفتح لباب من أبواب اللطف الخفى .

أهو علم من الله بأنه تأتى عصور زنى تغشى فيها الظلمات الناس أمما وشعوبا ويشيع الفجور حتى يصبح إعلانات عادية وبرامج يومية فى الإذاعة والتليفزيون فلا يعود للفساد علاج إلا ذلك الرجم العام الذى حدث لقوم عاد وثمود ولوط والفيل . . أو ذلك الهدم العام للدنيا بالقيامة .

أنا أحب أن أفهمه بأنه لطف بأمة التوحيد والحمد لله الذى أخفى نعمته فى عذابه وأخفى رحمته فى غضبه وعلمنا بأن نناديه باسمه الرحمن الرحيم وبأسمائه الحسنى وكل أسمائه حسنى حتى أسمائه التى يرتجف لها القلب كالمذل والقابض والخافض والمنتقم والجبار والمميت .

سبحانه . . كتب على نفسه الرحمة .

وقال . . سبقت رحمتى غضبى .

وقال . . وسعت رحمتى كل شىء .

وقال لنبيه الخاتم .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

وألهم ملائكته أن يستغفروا لنا بالليل وبالنهار وصلى هو وملائكته على المؤمنين منا ليخرجنا من ظلماتنا إلى نورنا .

وقال عن الناجين فى الآخرة .

(نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) .

فالحمد لله رب العالمين على نعمته .

والحمد لله رب العالمين على عذابه .

ونسأله العفو والمغفرة والاستقامة .

* * *

فهرس

صدر للمؤلف

١ – الله والإنسان	: مجموعة مقالات كتبت فى صيف ١٩٥٥ .
٢ – أكل عيش	: مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٥٣– ١٩٥٤.
٣ – عنبر ٧	: مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٥٥ – ١٩٥٧ .
٤ – شلة الأنس	: مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٦٢ – ١٩٦٤ .
٥ – رائحة الدم	: مجموعة قصص قصيرة كتبت بين ١٩٦٥ – ١٩٦٦.
٦ – إبليس	: دراسة كتبت فى عام ١٩٥٧ – ١٩٥٨ .
٧ – لغز الموت	: دراسة كتبت فى عام ١٩٥٨ – ١٩٥٩ .
٨ – لغز الحياة	: دراسة كتبت فى عام ١٩٦٧ .
٩ – الأحلام	: دراسة كتبت فى عام ١٩٦١ .
١٠– أينشتين والنسبية	: دراسة كتبت فى عام ١٩٦١ .
١١– فى الحب والحياة	: مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦١ – ١٩٦٦ .

١٢- يوميات نص الليل : مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦١ - ١٩٦٦ .

١٣- المستحيل : رواية كتبت فى عام ١٩٦٠ .

١٤- الأفيون : رواية كتبت فى عام ١٩٦٤ .

١٥- العنكبوت : رواية كتبت فى أوائل عام ١٩٦٥ .

١٦- الخروج من التابوت : رواية كتبت فى أوائل عام ١٩٦٥ .

١٧- رجل تحت الصفر : رواية كتبت فى عام ١٩٦٦ .

١٨- الإسكندر الأكبر : مسرحية كتبت فى صيف ١٩٦٣ .

١٩- الزلزال : مسرحية كتبت فى صيف ١٩٦٣ .

٢٠- الإنسان والظل : مسرحية كتبت فى عام ١٩٦٤ .

٢١- غوما : مسرحية كتبت فى شتاء ١٩٦٨ .

٢٢- الشيطان يسكن فى بيتنا : مسرحية كتبت فى أبريل ١٩٧٣ .

٢٣- الغابة : رحلة إلى أفريقيا الاستوائية كتبت فى أكتوبر ١٩٦٣ .

٢٤- مغامرة فى الصحراء : رحلة إلى الصحراء الكبرى فى صيف ١٩٦٩ .

٢٥- المدينة(أوحكايات مسافر) : مجموعة سفريات إلى أوربا بين ١٩٥٦ - ١٩٦٨ .

٢٦- اعترفوا لى : مختارات من رسائل القراء بين ١٩٥٦ - ١٩٥٩ .

٢٧- ٥٥ مشكلة حب : مختارات من رسائل القراء بين ١٩٦٠ - ١٩٦٦ .

٢٨– اعترافات عشاق : مختارات من رسائل القراء بين ١٩٥٦ – ١٩٦٦ .
٢٩– القرآن محاولة لفهم عصري : دراسة كتبت فى شتاء ١٩٦٩ .
٣٠–رحلتي من الشك إلى الإيمان : دراسة كتبت فى عام ١٩٧٠ .
٣١– الطريق إلى الكعبة : رحلة حج كتبت فى عام ١٩٧١ .
٣٢– الله : دراسة كتبت فى أوائل ١٩٧٢ .
٣٣– التوراة : دراسة كتبت فى أوائل ١٩٧٢ .
٣٤– الشيطان يحكم : مجموعة مقالات كتبت بين ١٩٦٥ – ١٩٧٠ .
٣٥– رأيت الله : دراسة كتبت فى صيف ١٩٧٣ .
٣٦– الروح والجسد : مجموعة مقالات كتبت فى شتاء ١٩٧٣ .
٣٧– حوار مع صديقي الملحد : مجموعة مقالات كتبت فى مارس ١٩٧٤ .
٣٨– الماركسية والإسلام : صدر عن دار المعارف فى فبراير سنة ١٩٧٥ .
٣٩– محمد : صدر عن دار المعارف فى يوليو ١٩٧٥ .
٤٠– السر الأعظم : صدر عن دار المعارف فى ديسمبر ١٩٧٥ .
٤١– الطوفان : مجموعة قصص ومسرحيات قصيرة يناير ١٩٧٦ .
٤٢– الأفيون : سيناريو وحوار مارس ١٩٧٦ .
٤٣– الوجود والعدم : دراسة سنة ١٩٧٧ .
٤٤– من أسرار القرآن : دراسة سنة ١٩٧٧ .
٤٥– لماذا رفضت الماركسية : دراسة سنة ١٩٧٦ .
٤٦–نقطة الغليان : مجموعة قصص قصيرة ١٩٧٧

٤٧- عصر القرود : دراسة كتبت فى يناير ١٩٧٨ .
٤٨- القرآن كائن حىّ : دراسة فى يناير ١٩٧٨
٤٩- أكذوبة اليسار الإسلامى : دراسة كتبت فى أغسطس ١٩٧٨
٥٠- نار تحت الرماد : مقالات كتبت فى ١٩٧٩
٥١- المسيخ الدجال : مجموعة قصص قصيرة كتبت فى ١٩٧٩
٥٢- أناشيد الإثم والبراءة : ١٩٨٠
٥٣- جهنم الصغرى : مسرحية ١٩٨٢ .
٥٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر : مقالات ١٩٨٢

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

قصص مصطفى محمود صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
روايات مصطفى محمود صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
مسرحيات مصطفى محمود صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
رحلات مصطفى محمود صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .

حازت رواية «رجل تحت الصفر» على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠

رقم الإيداع	١٩٩٥/٨٩٠٢
الترقيم الدولى 977-02-5067-8	ISBN

١/٩٥/٤٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.

دار المعارف